الأعلام من الأدباء والشعراء

أبو حيان التوحيدي

فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

إعداد

محمد علي الصباح

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

أبو حيان التوحيدي

فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

إعداد
محمد علي الصباغ
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

المقدمة

أبو حيان التوحيدي واحد من ألمع مفكري العربية وأدبائها، حتى انه لُقب بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ذلك أن كتبه تجمع إلى عمق الفكرة أناقة العبارة ورشاقة الأسلوب، من أجل ذلك فإن بعض المؤرخين يلقبونه بالجاحظ الثاني، هذا فضلاً عن انتهاجه مذهب المعتزلة.

وأبو حيان على نباهة شأنه وسعة علمه وفضله، كان سيء الحظ في حياته مضطهداً محدود الرزق، عمل بالوراقة والنسخ حيناً، وفي خدمة الوزير ابن العميد، ثم الوزير الصاحب بن عباد حيناً آخر ولم يلق كما تقول المصادر من أي منهما إلاَّ كل إهمال واحتقار، الأمر الذي دفع به أن يكتب فيهما كتاباً كبيراً أسماه «أخلاق الوزيرين» أو «مثالث الوزيرين» حيث نال من قدرهما بقسوة.

لقد كان أبو حيان خصيب الفكر كثير العطاء متبحراً بعمق في عديد من ألوان المعرفة، وألف أكثر من عشرين كتاباً من عيون الفكر العربي وآدابه، ولكن حين ضاقت به

أسباب الرزق، حقد على الناس جميعاً وتبلور حقده عليهم في إحراق كتبه جميعاً، ولم يسلم منها إلا ما كان في أيدي الناس.

وها نحن اليوم نعود لنلقي الضوء على هذا الرجل الذي لم يلقَ في حياته إلّا كل اهمال واحتقار، ولم يكن حظه في مماته خيراً منه في حياته فقد ظل مجهول الولادة مجهول الوفاة، مغموراً خامل الذكر رغم كل ما أعطى ورغم كل ما قدم.

المؤلف

عصره: نبذة تاريخية

أ ـ الناحية السياسية:

انقضى العهد الذهبي للدولة العباسية بحلول الثلث الأول للقرن الثالث الهجري، فالفترة الممتدة من سنة ٢٣٢هـ إلى سنة ٤٤٠هـ تعتبر فترة عصر الدويلات التي أخذت تنتشر على أنقاض الدولة العباسية، وقد أخذت كل دويلة من هذه الدويلات تنازع السلطة المركزية في بغداد القوة والسلطان، ولم يعد للخلافة في هذه المرحلة سوى الاسم، وأخذ رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء حتى أصبحوا كالدمى في أيديهم، يقتلون منهم من يشاؤون ويُولون من يشاؤون وقد بدأوا بقتلهم الخليفة المتوكل نفسه سنة ٢٤٧هـ فزال بذلك عن الخلافة زهوها وسلطانها. ومن هذه الدول التي استقلت ذاتياً وإدارياً عن مركز الخلافة في بغداد الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٦هـ) في فارس، وقد قامت بعدها الدولة السامانية وامتدت إلى ما وراء النهر. وفي مصر أيضاً قامت الدولة الطولونية (٢٥٣ ـ ٢٩٢هـ) التي استقل بها

محمد بن طغج حيث لقبه الخليفة العباسي الراضي بالله «بالإخشيد» ومعناها بالفارسية «السيد» ولم يلبث حكم الإخشيد هذا أن امتد إلى الشام والحجاز، وبقي على سدة الدولة الإخشيدية حتى وفاته سنة ٣٣٤هـ فخلفه خادمه كافور.

وبعد وفاة كافور استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨هـ وبسطوا سلطانهم على الحجاز ومعظم الشام.

وفي الموصل أسس ناصر الدولة الحسن بن حمدان الدولة الحمدانية (٣١٧هـ - ٩٢٩م). وفي سنة (٣٣٣هـ - ٩٤٥م) سار سيف الدولة علي بن حمدان وانتزع مدينة حلب من أيدي الإخشيديين وأسس دولة من أزهى الدويلات في التاريخ العربي، كما كانت الصخرة الصلبة التي تحطمت عليها هجمات الروم، فقد دافعت عن الخلافة وهزمت الروم في معارك عديدة. وقد ضم بلاط سيف الدولة في حلب رجالاً عِظاماً من أصحاب السيف والقلم كالمتنبي وأبي فراس وأبي الفرج والثعالبي وابن خالويه والفارابي. هذا مع العلم أن سيف الدولة نفسه كان أديباً وشاعراً محباً للأدب وكلفاً به.

على أن الدولتين، الإخشيدية والحمدانية كانتا على طرفي نقيض وهما تختصمان على أواسط الشام، فمرة كان

يمتد حكم الحمدانيين إلى دمشق، ومرة يتراجع إلى حمص.

وأما الدولة البويهية، فقد تمكن عماد الدولة، علي بن بويه من منازعة مَرْداويج وإقامة الدولة البويهية سنة ٣٢٠هـ. ثم جاء معز الدولة أحمد بن بويه وسار إلى بغداد واتخذ لنفسه لقب أمير الأمراء سنة ٣٣٤هـ ثم ما لبث أن خلع الخليفة المستكفي وسمل عينيه واعتقله إلى أن توفي بعد أمد. ولقد كان حكام هذه الدولة يميلون إلى العلويين ويعتبرونهم أصحاب الحق الشرعيين لانتمائهم إلى الرسول الكريم فضلاً عن أنهم من سلالة يزدجرد الثالث آخر ملوك ساسان. ولقد فكر معز الدولة أن يعزل الخليفة العباسي ويعين مكانه خليفة علوياً ولكن أصحابه لم يقبلوا بذلك، وتمكنوا من اقناعه حتى عدل عن تنفيذ فكرته.

وبالإضافة إلى هذه الدويلات التي كانت قد بدأت بوضع الأسافين العميقة في جسم الدولة العباسية، فإن هناك حركات سياسية كانت تحمل الطابع الديني أهمها الحركة القرمطية الرافضة لسياسة العباسيين. وقد أسس هذه الحركة سنة (٢٧٧هـ ـ ٨٩٠م) داعية إسماعيلي من أهل الكوفة اسمه حمدان قرمط. ثم لم تلبث هذه الحركة أن امتدت إلى شرق الجزيرة العربية وبادية الشام فكثر عبثهم في أيام

رئيسهم أبي طاهر سليمان (٣٢١ ـ ٣٣٢هـ) الذي كان يقطع طريق الحجاج ونزع الحجر الأسود من الكعبة وحمله معه إلى الأحساء، ولكن ابنه سابور عاد فرد الحجر الأسود إلى مكانه في مكة سنة (٣٣٩هـ ـ ٩٥١م). وقد لقيت الكوفة أهوالاً من القرامطة، إذ أغاروا عليها سنة ٣١٢هـ وكذلك سنة ٣١٥ فهزموا في المرتين جند الخلافة وأسروا قائده يوسف بن أبي الساج، كما اتجهوا إلى بغداد وهدّدُوها ولكنهم لم يدخلوها. ثم عاودوا الكرة على الكوفة سنة ٣١٦هـ. وقد هوجمت هذه المدينة المرموقة من حيث مكانتها العلمية الموازية للبصرة آنذاك، مراراً وتكراراً في السنوات ٣١٩هـ و٣٢٣هـ و ٣٢٥هـ من قبل القرامطة الذين كثر مؤيدوهم في تلك الحقبة من الزمن.

وإلى جانب حركة القرامطة فقد ظهرت حركات بعض الخوارج الذين غزوا الكوفة سنة ٣١٥هـ وخربوا أسوارها. كما أغار عليها بنو نمير وبنو كلاب، وعاثوا بظاهرها فساداً مما اضطر أميرها أن يخرج إليهم ولكنه ما لبث أن وقع في أسرهم سنة ٣١٨هـ، وظلت الحال على حالها من الفوضى والاضطراب السياسي والقلق الأمني، وظهر أن الدولة العباسية قد بدأت تتنازعها عوامل الانحلال وبدت عليها مظاهر الشيخوخة والعجز. وخصوصاً خلال فترة تولي كل من

الخلفاء المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع، وعلى حد قول ابن الأثير أثناء حديثه عن حوادث سنة ٣٢٤ حيث لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، وأما الحكم في جميع أنحاء الخلافة فهو لابن رائق وليس للخليفة.

ب ـ الحياة الاجتماعية:

ان السلطة الفعلية في القرن الرابع الهجري كانت بأيدي آل بويه الفرس الذين امتد حكمهم من فارس إلى بغداد نفسها الأمر الذي جعلهم قادرين على الأخذ بزمام الأمور والتحكم بالبلاد ورقاب العباد، وقد أناطوا بأنفسهم أمر جباية الأموال، فعمدوا في سبيل الحصول عليها إلى أبسط السبل وأرخصها فقد كانوا يقطعون الأرض والمناصب لمن يدفع لهم زيادة في كل عام، فالوزير الذي يأتي مثلاً إلى منصبه من هذه الطريق كان همه الأول والأخير جمع المال الذي دفعه أضعافاً مضاعفة، وقد يُعين عاملاً من قبله ويستوفي منه مقدَّماً مبلغاً معيناً من المال، ثم لا يلبث بعد مدة من الزمن أن يُعين عاملاً آخر مكان العامل الأول بعد أن يستوفي منه مبلغاً جديداً وهكذا دواليك، الأمر الذي جعل الفساد يستشري في جميع أركان الدولة حتى شمل الحسبة والقضاء وهما أهم ما يرتبط في حياة الناس المعيشية

والاجتماعية، فعمت الفوضى والسرقة والغش والرشوة والتلاعب بمقدرات حياة المواطنين مما جعل الإنسان العادي يغرق بالفقر والجوع والعوز حتى أصبحت الحياة بالنسبة لأبناء الشعب حملاً ثقيلاً لا يُطاق.

والذي ساهم مساهمة فعالة في تشتيت صرح الدولة العباسية هو كثرة الأجناس المتصارعة على مواقع النفوذ. فلو تأملنا هذا الخليط السكاني المؤلف من العرب والفرس والأتراك والزنج والآراميين والروم، لوجدنا أنه من الواجب على هؤلاء الناس أن يجتمعوا على قاسم مشترك يوحدهم ويعملون دونه للمحافظة على روح الاستمرار والبقاء، وهم في ذلك إنما يحترمون الغاية الإلهية التي دعا إليها الإسلام في عمق تعاليمه السامية فيجتمعون حولها، فتنتصر بذلك إرادة العيش المشترك وتكتمل سعادة المجتمع، وتشمل كل بني الإنسان. ولكنهم مع الأسف، لم يدركوا ذلك أبداً، فقد كانت الشهوات هي التي تحركهم، والأهواء تدفعهم إلى ارتكاب أحط الحماقات وأحقرها، وخاصة أن بني بويه هؤلاء كانوا يحرضون الناس على التمرد على سلطة الخلافة في الوقت الذي كانوا يعملون فيه تحت سلطتها، مما جعل الخلافات تتعمق بين السنة والشيعة، وانتشرت الفتن التي عبثت بلحمة المجتمع وتماسكه.

وإضافة إلى هذا النزاع المذهبي، فقد كان هناك نزاع خفي بين المسلمين والنصارى واليهود والبوذيين، وكانوا جميعاً يناصبون السلطة السياسية العداء عن طريق الاتجاهات الخاصة التي يؤمنون بها.

وعلى الرغم مما رأينا من الصراعات المختلفة، فإننا نجد أن هذا القرن قد شهد حضارة مزدهرة وترفاً بالغاً في المطعم والملبس والمسكن، فقد غلب طراز الحياة الفارسي على هذا العصر بشكل عام وشامل، وأصبحت الأعياد الفارسية كالنيروز[1] والمهرجان[2] أعياداً للعامة والخاصة من فرس وغير فرس.

كما انتشر اللهو في الأوساط المترفة وتعددت مظاهره ووجوهه، وقد ضخم الأدباء والشعراء مظاهر هذا اللهو مع ما يحمله من استهتار ومجون وعبث، وهم إنما يشيرون بذلك إلى أن عوامل اللهو موجودة في كل زمان ومكان ولكنها تستتر في عصور القوة السياسية، ثم تظهر وتشتهر في عصور الضعف السياسي، وهذا ما جعل اللهو ظاهراً شاملاً منتشراً في القرن الرابع الهجري حينما فقد العرب سلطانهم

---

(١) النيروز، ٢١ آذار وهو عيد رأس السنة الفارسية.

(٢) المهرجان، أول الخريف.

السياسي وتقسّم الحكم الإسلامي بين دويلات متنازعة، فكان اللهو خير متنفس للناس. حتى إذا جئنا نتحدث عن مقدار توزيع الثروة بين الناس فنجد الغنى الفاحش من جهة والفقر المدقع من جهة ثانية، فالثروات كانت موزعة توزيعاً غير عادل بسبب ما يعتمر النفوس من الظلم والطمع والأنانية. فقد كان هنالك أفراد من رجال الدولة ومن ذوي الجاه والسلطان في المجتمع يملكون من المال ما لا يُعد ولا يُحصى ويسرفون في المأكل والمشرب والمسكن والملاهي بينما نجد أن أبناء الشعب قد لا يجدون أحياناً ما ينفقون ولا ما يشبعون به بطونهم الخاوية.

ج ـ الناحية الثقافية:

لا شك أن الحياة العلمية والأدبية والثقافية بصورة عامة، تنتعش وتزدهر في ظل الاستقرار والهدوء والأمن، ذلك لأن هذه العوامل تساعد على تأمين رغد العيش ومتعة الحياة للإنسان، حتى إذا ما توفر للإنسان كل ذلك أمكنه أن يلجأ إلى المتعة النفسية والعقلية والجمالية، فتزدهر العلوم، وتنشط الآداب، ولكن من الملاحظ بصورة عامة أن هذا الازدهار والنشاط لا يتوقف إذا اضطربت الحياة السياسية، لأن نمو العلوم والآداب والفنون وازدهارها أو تأخرها

وانحطاطها إنما يتقلب في أطوار بطيئة مديدة للغاية لا تساير الأطوار السياسية ولا تسير معها جنباً إلى جنب.

وإذا كان القرن الرابع الهجري عصر اضطراب سياسي أدى إلى نشوء دويلات استقلت عن الدولة الأم ولم ترتبط معها إلّا بالاسم، فإن بلاطات هذه الدويلات كانت ملاذاً للشعراء والأدباءِ ورجال العلم والفلسفة واللغة لما وجدوه فيها من تشجيع وتكريم فتفيض ألسنة أولئك الشعراء والأدباء بمدح سلاطين وأمراء تلك الدويلات الذين كانوا يتنازعون على السلطة والنفوذ في كل شيء، وهم بأمس الحاجة إلى من يدافع عنهم بلسانه، كما راحوا هم يدافعون عن أنفسهم بشتى الطرق والوسائل سواء كانت عسكرية أو مادية. فكان الأديب أو الشاعر منهم لسان حال الأمير ومادحه ورافع اسمه بين الناس، فينبه ذكره ويذيع صيته بعد ماكان مغموراً.

وأما الكتابة فقد كانت في هذا القرن ـ الرابع الهجري ـ أوسع موضوعاً وأصفى أسلوباً وأبعد فكراً وأوضح منطقاً، فاتسع المجال في النثر لذوي الأفكار الثاقبة، فزينوه وجمَّلوه بالتقسيم والسجع فنبغ في هذ القرن أئمة الكتَّاب في المشرق والمغرب. وممن نبغ في هذا القرن شعراء وأدباء كثيرون. ونخص من شعرائه بالذكر: المتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي وأبا فراس الحمداني وابن نباتة

السعدي وأبا العلاء المعري وأبا الحسن التهامي والسري الرفاء، كما نخص من أدبائه وكتابه: ابن العميد وابن عباد والصابي والهمذاني والخوارزمي وأبا حيان التوحيدي والآمدي وأبا علي القالي صاحب الأمالي وأبا الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني والجرجاني صاحب الوساطة والثعالبي والنيسابوري صاحب يتيمة الدهر والصولي صاحب كتاب الأوراق.

وأما في اللغة فقد نبغ الزجاج والأخفش ومحمد بن عرفة ونفطويه، وابن مجاهد، وابن دريد، وابن السراج وابن الانباري والأزهري وابن جني والسيرافي وابن خالويه وغيرهم.

ولأدب هذا العصر خصائص مميزة حيث انها لم تقتصر على الجوانب الفنية القائمة على الصناعة والتأنق في اللفظ والصورة بل تعدته إلى التأليف الذي يميل إلى النهج العلمي أيضاً.

كما رق أسلوب الشعر ولان وأصبح في متناول جميع الأفهام مع ما يحمله من الطرافة والظرافة. على أن الجانب الأكبر من شعر القرن الرابع الهجري ظل في البلاطات محافظاً على أسلوب الجاهليين لما يحمله من خشونة البداوة

في أغراضها المألوفة كما يظهر من خلال شعر المتنبي والشريف الرضي والمعري.

هذا من الناحية اللفظية، وأما من الناحية المعنوية فإن للبيئة تأثيراً كبيراً على الأدب. ففي بلاط البويهيين تبرز في الشعر نزعة التشيع، وفي بلاط سيف الدولة تبرز نزعة القوة والبطش في مقارعة أعداء الأمة، وفي بلاط كافور تبرز نزعة التزلف والمراوغة، وبصورة إجمالية فقد كانت هذه البلاطات صروحاً فسيحة لازدهار الشعر والعلوم والفنون والأدب.

وإذا كنا نرى في أدب القرن الرابع الهجري نوعي التشيع المعتدل والمتطرف فإننا نرى فيه اتساع نطاق الوصف في الطبيعة فبرز فن الزهريات، وكذلك اتسع القول في الشعر الوجداني في السياسة والأخلاق وأحاديث النفس. كما اتسع فن الاخوانيات في الشعر والأدب وهو عبارة عن الرسائل التي يتبادلها الأدباء شعراً ونثراً؟ وهذه الإخوانيات قطع وجدانية خالصة لأنها تحمل، بين المتراسلين، صوراً من العتاب والتشوق واللوم والشكر؛ وقد تتناول أحياناً بحثاً أو نقداً أو نصحاً.

واتسع كذلك فن القصص في أغراض مختلفة وأساليب متنوعة.

ومن القصة والحكاية تحدر فن المقامة الذي أتى به بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ ـ ٣٩٨)هـ حيث نجد في مقامته تسلية ومتعة لما تحمله من الخصائص أهمها: المجلس والرواية والملحة والعقدة والموضوع واسم المقامة وشخصيتها والصناعة فيها والشعر الذي يتخللها.

والحق يقال: إن العصر العباسي عامة والقرن الرابع منه خاصةً كان من أزهى العصور الإسلامية علماً وأدباً وحضارةً، إذ نضجت فيه مواهب العربي التي تفتحت على أثر احتكاكه بالثقافة الهندية والفارسية واليونانية، فعمل على استيعابها وهضمها وأنشأ منها مجتمعة ثقافة جديدة وحضارة إسلامية خلدت على مر العصور.

٢ ـ أبو حيان التوحيدي

أ ـ حياته وصفاته:

أبو حيان التوحيدي، واسمه الحقيقي علي بن محمد بن العباس، الذي ـ مع الأسف ـ لم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته، اللهم إلا تلك النتف القصيرة والأخبار الضئيلة المبعثرة هنا وهنالك؛ فقد عجب ياقوت الحموي في أن مؤرخي الرجال لم يترجموا له، مع أنه «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة» وكل ما تخبرنا عنه الكتب، أنه عاش نيفاً وثمانين عاماً في شظف من العيش ومرارة الحرمان ٣١٠هـ ـ ٩٢٢م ـ ٤١٤هـ وأنه على نباهة شأنه ونبوغ علمه، كان سيء الحظ في حياته، عاش مضطهداً محدود الرزق، عمل بالوراقة والنسخ حيناً وفي خدمة الوزير ابن العميد الملقب بذي الكفايتين، ويعنون بذلك كفاية السيف وكفاية القلم، وقد قام مقام أبيه العميد، واستوزر لركن الدولة البويهي، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦هـ. ثم الوزير الصاحب بن عباد حيناً آخر،

وهو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة أبي منصور بن بويه الديلمي ثم وزيراً لأخيه فخر الدولة أبي الحسن علي، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء، لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا. ولم يلق من أي منهما إلاَّ كلَّ إهمال واحتقار، الأمر الذي دفع به إلى أن يكتب فيهما كتاباً أسماه «أخلاق الوزيرين» أو «مثالب الوزيرين» نال فيه من قدرهما على ما فيهما من فضل وعلم ومروءة وقد أرجع الدكتور «الشكعة» ما لقيه أبو حيان من عنت في حياته إلى خلل في نفسه وعده مسؤولاً بعض الشيء عن ذلك، ولكنه لم يوضح وجهة نظره تلك ولم يحاول شرحها أو تعليلها: ولكن من الواضح، كما عُرف عنه، أنه كان حقير الملبس قبيح الهيئة سيء العادة، تنقصه بعض المرونة والتكيف مع محيطه، شأنه في ذلك شأن أمثاله من الأدباء والشعراء في ذلك العصر، أمثال «أبي الفرج الأصفهاني» صاحب كتاب «الأغاني» و «ابن الرومي» الشاعر المتطير، ومن لف لفهم. ودليلنا على ذلك ما جاء في كتابه «الامتاع والمؤانسة» نفسه على لسان صديقه «أبي الوفاء المهندس» عندما طلب هذا الأخير من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي، من حديث

وذكره بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه ـ أي أبا حيان ـ ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عادته وقلة مِرَانته وحقارة لبسته؛ حيث يقول أبو حيان على لسان صديقه أبي الوفاء المهندس: «قلت لي أدام الله تعالى توفيقك في كل قول وفعل، وفي كل رأي ونظر ـ: إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرَّي، إلى بغداد في آخر سنة سبعين بعد فوات مأمولك من ذي الكفايتين ـ نضَّر الله وجهه ـ عابساً على ابن عباد مغيظاً منه، مقروح الكبد، لما نالك به من الحرمان المُريب والصَدِّ القبيح، واللقاء الكريه، والجفاء الفاحش، والقذع المؤلم، والمعاملة السيئة، والتغافل عن الثواب على الخدمة، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة، والتجهم المتوالي عند كل لحظة ولفظة. وذكرت في الجملة شقاءً اتصل بك في سفرك ذلك، وعناءً نال منك في عُرْض أحوالك... ووعدتك صلاح الحال عن ثبات النية، وصحة العقيدة، وقلتُ: أنا أرعى حقك القديم حين التقينا (بأرَّجان) وأنا على باب (ابن شاهويه) الفقيه، وعهدك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين؛ وأوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض ـ أدام الله تأييده ـ وأخطب لك قبولاً منه، وتخفيف الإذن عليك... نعم ورتبت ذاك كله... هذا وأنت غِرٌّ لا هيئة لك في لقاء

الكبراء، ومحاورة الوزراء؛ وهذا حالٌ تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك، وإلى مران سوى مرانك، ولبسة لا تشبه لبستك».

ومهما يكن من أمر فإن أبا حيان واحد من أولئك العلماء الأدباء الذين أصيبوا في حياتهم بالبؤس والفاقة والشقاء، وظل طوال حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه، فلم يحظ من كل ذلك بطائل، وعاش كما يقول هو عن نفسه على نحو أربعين درهماً في الشهر، حتى اضطر أن يأكل حشيش الأرض، بينما رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوفير، مع أن أكثرهم لا يدانيه علماً أو يجاريه أدباً، ولكن هي «الدنيا إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره وإن هي أدبرت سلبته محاسن نفسه» وهكذا قصد أبو حيان من قصد من الأمراء والوزراء، مدح وأطرى، وبكى واشتكى، وهدد وأوعد، فما نفعه مدحه ولا ذمه، ولا اطراؤه ولا هجاؤه. ودام الحال على هذا المنوال إلى أن لقيَ وجه ربه كما يذكر الدكتور الشكعة سنة ٤٠٠هـ على أن ابن خلكان يذكر في كتابه وفيات الأعيان أن أبا حيان كان موجوداً في السنة الأربعمائة، كما يذكر ذلك هو نفسه في كتابه «الصديق والصداقة» كما ترى بعض الروايات أنه توفي سنة ٤١٤هـ.

وهكذا لم يكن حظ الرجل في مماته أوفر منه في حياته. فقد ظل مغموراً خامل الذكر رغم كل ما أعطى وما قدم.

ب ـ أصله ونشأته:

اختلف المؤرخون في أصله ولقبه ونشأته، فالبعض يراه فارسيا من شيراز أو من نيسابور، ويرى آخرون أنه عربي من مدينة واسط في العراق، وأنه شبَّ في بغداد «ثم انتقل إلى شيراز، فهو خامل الذكر لم يصله أحد بنسب «فإن أحداً لم يذكره في كتاب ولا دمجه في خطاب»[1]، وجل ما يشيرون إليه أنه ابن بائع متجول كان يبيع تمر التوحيد[2] في أسواق بغداد وإلى هذا التمر نُسب، وليس إلى التوحيديين المعتزلة القائلين بوحدة ذات الله وصفاته، كما ظن البعض، فليس في سيرته ما يدل على أنه كان من أهل المعتزله، إذ كان في مطلع شبابه صوفياً تخالف نزعته طريقة المتكلمين، وهو شيخ في الصوفية كما ذكر ياقوت، جاحظي ليس على مذهب الجاحظ في الاعتزال، إنما على مذهبه الفني في الكتابة والأداء، فقد سلك مسلكه واشتهى أن ينتظم في سلكه[3].

---

(١) ياقوت الحموي ـ معجم الأدباء ـ ج ١٥/ص ٥ ـ بيروت دار إحياء التراث العربي.

(٢) إسم لنوع من التمور.

(٣) المرجع نفسه، ج ١٥/ص ٥.

أما من حيث قوميته فالأرجح أنها عربية، رغم أن ياقوت يكاد يجزم في معجمه على انتمائـه الفارسي، فهو برأيه شيرازي الأصل أو نيسابوري، وعمدة بني ساسان[1]، ولكن مما يضعف رأي ياقوت إذا ما علمنا أن أبا حيان لم يكن يعرف الفارسية مطلقاً، ولو كان قد ولد ونشأ حقاً في شيراز أو في نيسابور لكان على دراية ولو سطحية بهذه اللغة، بل هناك ما يشير إلى تعصبه للغة العربية وتفضيلها على سائر اللغات ومنها الفارسية بالذات بدليل قوله: «وقد سمعنا لغات كثيرة ـ وإن لم نستوعبها ـ من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب والأندلس والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات تصدع العربية، أعني الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها والمسافة بين مخارجها والمعادلة التي تذوقها في أمثلتها والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها»[2].

كما يبدو من حديث أبي حيان مع الوزير ابن سعدان أنه يفضل العرب على العجم، وذلك عندما روى له حديث

---

(١) بنو ساسان، ملوك الفرس.

(٢) أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، ج ١/ص ٧٧ بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، تحقيق أحمد الزين وأحمد أمين.

ابن المقفع عنهما حيث قال ان العربي يعقل الأمم لصحة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم[1].

ويتضح لنا الأمر جلياً عندما نسمع أبا حيان يخاطب الفرس على أساس أنه غريب بينهم، «أطال الله بقاءكم، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم، إذا فاتته الغنيمة منكم، وبعد فإني لم أرد بلادكم من العراق مباهياً لكم، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكم، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم»[2]. فطبيعة هذا الحديث توحي أن التوحيدي من العراق وليس من فارس، وأن بلاده غير بلادهم، وأنه عربي، إن لم يكن أصلاً ونسباً، فولادة ولغة وتاريخاً وثقافة.

أما تاريخ مولده فقد ظل دون تحديد ثابت، سوى ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء عن رسالة لابي حيان مؤرخة في المئة الرابعة للهجرة أنه في عشر التسعين، وعلى هذا الأساس يكون مولده سنة ٣١٠هـ ـ ٩٢٢م على وجه التقريب.

وليس بين أيدينا أية مصادر تلقي الضوء على طفولة

---

(١) المرجع نفسه، ج ١/ص ٧٣.

(٢) التوحيدي ـ رسالة في العلوم ملحقة بكتاب (في الصداقة والصديق)، ص ٢٠٠، زكريا ابراهيم، التوحيدي، ص ١٣ و ١٤. مصر، المؤسسة العامة للتأليف والنشر.

أبي حيان ولقبه ونشأته وأسرته ولا هو قدَّم شيئاً عن نسبه وعائلته وبقي سجله الأُسري مجهولاً وهذا ما دفع زكي مبارك في كتابه النثر الفني إلى القول: «لا تسألني متى ولد وأين ولد، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمح في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاده»[1] فقد عاش أبو حيان ـ كما هو واضح ـ في كنف أسرة فقيرة معدومة، محروماً من العطف والحنان رازحاً تحت وطأة الحاجة والحرمان، مما ولَّد في نفسه شعوراً بالألم المرير والسخط الدائم على المجتمع، وماذا ننتظر غير ذلك من إنسان فقد كل شيء في وقت مبكر، فَقَدْ فَقَدَ في مسيرة حياته الصديق المخلص والصاحب والتابع والرئيس بدليل قوله: «إنه ظل طول عمره لا يجد حوله ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً وصاحباً قريباً وتابعاً أديباً ورئيساً منيباً»[2].

ولم يعرف عنه أنه تزوج أو انجب أولاداً أو عاش حياة أسرية مستقرة. مما أتاح له التنقل الدائم طلباً للعلم وسعياً وراء الجاه والمال.

ج ـ مهنته وثقافته ومؤلفاته:

لجأ أبو حيان منذ مطلع شبابه إلى مهنة الوراقة، حيث كان ينصرف إلى نسخ الكتب لقاء أجر زهيد وظل صيته

(١) زكي مبارك، النثر الفني، ج ٢، ص ١٦١، بيروت، دار الجيل.
(٢) ياقوت، ج ١٥، ص ١٩.

مغموراً لا يبارح دكاكين الوراقين، فلم يحفل به أحد، ولم ينتشر أمره بين مثقفي وأدباء عصره، إذ كان يصل الليل بالنهار في مهنته دون أن يعلم أحد شيئاً عن ظروف حياته العائلية والاجتماعية والإنسانية، حتى صمم أخيراً سنة ٣٥٠هـ[1] وهو على أبواب الاربعين، على وجه التقريب، على الخروج من عالمه والنظر إلى ما حوله في عصر زهت فيه معظم العلوم والمعارف.

والحقيقة تُقال أنه كان لمهنة الوراقة أثر بارز وأساسي على ثقافة أبي حيان، فقد أفسحت له في المجال أمام قراءة شتى أنواع الكتب وأشكالها فقويت حافظته وتوقد ذهنه واتسعت مداركه وتنوعت ثقافته، مما جعله يشعر بنهم كبير إلى العلم، فطفق يغزو مجالس العلماء والأدباء والمفكرين ويحضر حلقات التدريس عندهم، وكان من بين أساتذته أبو سعيد السيرافي المتوفى عام ٣٦٨هـ، شيخ الشيوخ وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والقرآن والحديث والكلام والحساب والهندسة، وأبو سليمان السنطقي المتوفى عام ٣٨٠هـ ـ ٩٩٠م، وكان فيلسوفاً لغوياً له عناية بالشعر

---

(١) حسين مروة ـ تراثنا كيف نعرفه، ص ١٩٢ ـ بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية. ط أ، ١٩٨٥.

والأدب وهو بين العلماء أدقهم نظراً وأصفاهم فكراً وأظفرهم بالدرر، غزير البحر واسع الصدر، ثم الفيلسوف النصراني يحيى بن عدي المتوفى عام ٣٦٤هـ، انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه.

ومن أساتذة التوحيدي أيضاً علي بن عيسى الرماني المتوفى عام ٣٨٤هـ، وكان أحد مشاهير الأئمة في مختلف العلوم وخاصة في النحو، ثم أحمد بن بشر المروزي، المتوفى سنة ٣٦٢هـ، وتلقى عليه أصول الفقه الشافعي كما أخذ عنه الكثير من العلوم والآداب[١].

إن نظرة سريعة على أساتذة أبي حيان ترينا أسباب نبوغه، وتنوع معلوماته، وهو إلى جانب ذلك كان شغوفاً بكل علم متتبعاً كل ثقافة، حتى غدا موسوعياً واسع الأفق خصب الخيال فيلسوفاً مع الفلاسفة، متكلماً مع المتكلمين، لغوياً مع اللغويين ومتصوفاً مع المتصوفين، ثم إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، محقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة، كثير التحصيل للعلوم واسع الدراية والرواية[٢]. لذلك كان من الطبيعي أن تكثر مؤلفاته وتتنوع موضوعاتها، وقد وصلنا أكثرها رغم أنه أحرقها في أواخر حياته، إذ أن معظمها كان منسوخاً لدى بعض

(١) ياقوت، ج ٨/ص ١٥٠.
(٢) المرجع نفسه، ج ١٥/ص٥.

أصدقائه فنجا من التلف. ورغم ذلك فقد ترك أبو حيان للمكتبة العربية من مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة ما يضعه في مصاف الطبقة الأولى من المثقفين، فهذا ياقوت الحموي يذكر له في معجمه عدة كتب أهمها:

١ ـ كتاب رسالة الصديق.
٢ ـ كتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي.
٣ ـ كتاب الإمتاع والمؤانسة.
٤ ـ كتاب الإشارات الإلهية.
٥ ـ كتاب الزلفة، أو الزُلفى.
٦ ـ المقابسة، (المقابسات).
٧ ـ كتاب تقريظ الجاحظ.
٨ ـ كتاب ذم الوزيرين.
٩ ـ كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.
١٠ ـ كتاب الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة.
١١ ـ كتاب الرسالة البغدادية.
١٢ ـ كتاب الرسالة في أخبار الصوفية
١٣ ـ كتاب الرسالة في الحنين إلى الأوطان.
١٤ ـ كتاب البصائر وهو عشرة مجلدات.
١٥ ـ كتاب المحاضرات والمناظرات.

وهنالك كتب أخرى سوى هذه التي ذكرها ياقوت هي: كتاب الحوامل والشوامل، ورسائل عدة مثل حكاية أبي القاسم البغدادي، ورسالة الحياة، ورسالة السقيفة، ورسالة في علم الكتابة، ورسالة في العلوم، ومناظرة بين أبي بشر متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي. وهناك كتاب سماه التوحيدي النوادر ليس منه شيء بين أيدينا، ولربما التبست أسماء كتبه على ناسخ أغفل، أو سها، أو جهل.

وأما كتبه المطبوعة والمنشورة فهي:

١ ـ رسالة الصديق والصداقة.
٢ ـ الامتاع والمؤانسة.
٣ ـ الاشارات الإلهية.
٤ ـ ثلاث رسائل (العلوم، السقيفة، علم الكتابة).
٥ ـ البصائر والذخائر.
٦ ـ حكاية أبي القاسم البغدادي.
٧ ـ مما نشره أحمد فارس الشدياق، صاحب «الجوائب» بالاستانة: رسالتان للعلامة الشهير أبي حيان التوحيدي، رسالة الصداقة والصديق، ورسالة العلوم سنة ١٨٨٤.
٨ ـ المقابسات.

٩ ـ مناظرة بين أبي بشر متى بن يونس القُنَّائي وأبي سعيد السيرافي في المنطق اليوناني والنحو العربي.

١٠ ـ الحوامل والشوامل.

١١ ـ ذم الوزيرين.

١٢ ـ رسالة القاضي أبي سهل.

١٣ ـ رسالة الحياة.

١٤ ـ رسالة السقيفة.

١٥ ـ رسالة في علم الكتابة.

أما كتبه المفقودة فيرجَّح أنها.

١ ـ رسالة في: الرد على ابن جني في شعر المتنبي.

٢ ـ رسالة في: الحنين إلى الأوطان.

٣ ـ رسالة في: صلات الفقهاء في المناظرة.

٤ ـ رسالة في: الصوفية.

٥ ـ رسالة في: أخبار الصوفية.

٦ ـ رسالة في: البغدادية.

د ـ علاقاته واتصالاته:

قلنا إن أبا حيان كان قد احترف مهنة الوراقة وظل فيها عشرات السنين دون أن تُرضي طموحه إلى الثراء والمجد، فقد أصبحت هذه الحرفة بالنسبة له حرفة الشؤم لأن فيها

ضياع العمر والبصر، لذلك أخذ يبحث عن الطرق التي قد توصله إلى أهدافه، فقرر الاتصال بالوزراء وأرباب السلطة شأنه في ذلك شأن غيره من الأدباء والشعراء والمفكرين الذين ينعمون بالعطايا والهبات وينالون الحظوة وهو يرى نفسه أنه متفوق عليهم، لذلك عزَّ عليه أن يتنعم غيره بينما هو يعاني من ألم الفقر والحاجة وخمول الذكر، فاتصل بالحسن بن محمد المهلبي وزير معز الدولة البويهي وكان مكرماً للعلم والعلماء، عطوفاً على الأدباء والمفكرين، إلا أن العلاقة لم تلبث أن ساءت بينهما لمجاهرة التوحيدي ببعض الآراء التي لم يرضَ عنها المهلبي فنفاه من بغداد سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣م) بحجة الزندقة.

رحل أبو حيان بعد ذلك إلى الري واتصل بأبي الفضل بن العميد وكان وزيراً أديباً قصده الشعراء والأدباء لمكارمه وجوده وكان بلاطه منتدى لأهل الفكر والقلم، إلا أن حظ التوحيدي لم يكن سعيداً، فعاد من حيث أتى صفر اليدين، وكذلك جرى له مع أبي الفتح بن أبي الفضل بن العميد عندما تولى الوزارة بعد أبيه، حيث قابله بالصدود والاعراض إثر الرسالة التي حملها إليه، ويبدو فيها الرياء والملق والاستجداء، ويحط أبو حيان أخيراً رحاله في فناء الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة البويهي حيث عرض

عليه خدماته، فجعله وراقاً في داره، سنة ٣٦٧هـ، وظل ينسخ ثلاث سنوات على غير رضا منه دون أن يحصل على شيء، فرجع عنه ذاماً له بل اجتهد كثيراً في النيل من كرامته والغض من مكانته.

ولما فارق أبو حيان فناء الصاحب بن عباد سنة ٣٧٠هـ عاد إلى بغداد كسير الخاطر دون أن يحقق ما كان يتمناه، وإذ عضته الحاجة عاد إلى حرفة الوراقة فأشفق عليه أبو الوفاء المهندس وقرَّبه من الوزير ابن سعدان، إلا أنَّ قدر التوحيدي في الحياة لا تبديل له، وتكون بذلك علاقته بهذا الوزير آخر صلاته بالوزراء وذوي الشأن، إذ انتهت هذه العلاقة بابن سعدان بعد مقتل هذا الأخير بعد سنتين فقط من اتصال أبي حيان به ومسامرته له[1].

هـ ـ شخصيته:

والآن. لو تساءلنا لماذا أخفق أبو حيان حيث نجح غيره من الأدباء والمفكرين باتصالهم بالوزراء الذين اتصل هو بهم؟. بل لماذا استثني أبو حيان وحده في عصر كانت فيه مجالس الملوك والوزراء منتديات أدبية تزخر بالأدباء والشعراء والمفكرين الوافدين إليها، فينالون الأعطيات، ويحظون

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء، ج ١/ص ١٢.

بالرعاية والعناية والتشجيع، أليس هنا ما يدعو إلى التساؤل؟ وإلا فما هو سبب الصد القبيح والحرمان المر والمجافاة والكراهية التي لقيها الرجل؟

إنه لمن المستحيل أن تصدر هذه المواقف من هؤلاء الوزراء اتجاهه إلا لأمر هام.

فالتوحيدي من خلال ما نعته به أقرب أصدقائه وهو أبو الوفاء المهندس، شخصية تكاد تكون فريدة من نوعها بما تحمله من تناقضات وازدواجية وقلق. وربما كان ذلك يعود أيضاً إلى دمامة وجهه، ورثاثة مظهره كما هو معروف عنه، وإلى مزاجه السوداوي الذي يذكر بكبار عباقرة التاريخ البائسين، أمثال ابن الرومي، وشارل بودلير، وأبي العلاء المعري، وغيرهم، ومن المعروف أن صاحب هذا المزاج زئبقي المشاعر يسيء الظن بالناس وبالوجود، وينفر من الواقع. إن أبا حيان كان يزهى بمعرفته، وينتقص الآخرين، ويراهم أقل منه شأناً، وهذا ما فعله مع الوزيرين الأديبين ابن العميد المعروف بذي الكفايتين (السيف والقلم)، وابن عباد وهذا أساء إليه كثيراً.

فالتوحيدي كما هو واضح لم تكن لديه اللباقة والكياسة في معاملة الوزراء والتقرب منهم، بل كان جريئاً إلى حدود

الوقاحة، فهو يتشدق في كلامه، ويتطاول في حديثه ويستطرد إلى أمور لاتمت إليه بصلة، وها هو أبو الوفاء المهندس يتهمه بالعقوق ونكران الجميل ومخالطة الأردياء الأشقياء، ويصمه بالجهل والغفلة والضعف وقلة المروءة، حتى انه لم يعد يطمئن إليه أو يثق به كل الثقة. في هذه الصورة تنكشف لنا بوضوح معالم نفسية التوحيدي ومزاجه. فيقول: «أفكان من حقي عليك أنك تخلو بالوزير فتحدثه بما تحب وتريد وتكتب إليه ولعلك في عرض ذلك تعدو طورك بالتشدق وتجوز حدك بالاستحقار وتتطاول إلى ما ليس لك وتغلط في نفسك وتنسى زلة العالم وسقطة المتحري وخجلة الواثق، هذا وأنت غر لا هيئة له في لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء، وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك وإلى مران سوى مرانك، ولبسة لا تشبه لبستك. . . وبعد لعل لهب الموجدة يزداد ولسان الغيظ يعلو وطباع الإنسان تحتد. ولست أنت أول من بُرَّ فعقَّ ولا أنا أول من جفى فتق، وهذا فراق بيني وبينك إلا أن تطلعني طلع جميع ما تحاورتما ومتى لم تفعل هذا فانتظر عقبى استيحاشي منك وتوقع قلة غفولي عنك. وكأني بك وقد أصبحت حرَّان يا أبا حيان تأكل إصبعك أسفاً على ما فاتك من الحوطة لنفسك والنظر في يومك لغدك والأخذ بالوثيقة في أمرك، أتظنن بغرارتك وغمارتك وذهابك في فسولتك التي

اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء والأردياء، انك تقدر على مثل هذه الحال، وأنام منك على حسن الظن بك وأطمئن إلى حكك وجردِك، هيهات رقدت فحلمت)[1].

وذهب ياقوت في معجمه إلى حد القول: أبو حيان التوحيدي سخيف اللسان قليل الرضا عند الإساءة إليه، الذم شأنه والثلب دكانه، محارف يتشكى صرف زمانه ويبكي في تصانيفه على حرمانه.

وله مع الصاحب قصص تصور اعتداده بنفسه وقلة كلفه بالوزراء وذوي الشأن، فهو قد شنع برسائل الصاحب التي كلفه نسخها وقال فيها: هذا طويل ولكن لو أذن لي لخرجت منها فقرأ: كالغرر لا تمل ولا تستغث ولا تعاب ولا تسترث، وهذا يدل على أن أبا حيان قد أدعى لنفسه القدرة على تمييز الغث من السمين في رسائل الصاحب نفسه، وكأنه أعلم منه بذلك وأن الصاحب أقل منه أدباً ومعرفة[2].

وفي مجلس ابن سعدان لم يكن يتورع من طرح أقذع النوادر وابداء الرأي في حاشية الوزير وأعوانه. هذا قليل من

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج ١/ص ٦و ٧.
(٢) أبو حيان التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص ٣٣٢.

كثير، مما نجده حول شخصية أبي حيان ونفسيته ومسلكه الاجتماعي، فهو تعوزه القدرة على ضبط نفسه، لذلك كان متهوّراً سريع الغضب عاجزاً عن التمييز بين ما ينبغي أن يقال وما لا ينبغي، مرهف الأعصاب يثور لأدنى الأسباب ويتمرد لأتفه مبرر وكل هذا يفسر لنا فشله في الظفر بمحبة الوزراء وعطفهم ورعايتهم. ويفسر لنا تشاؤمه وشكايته وكراهيته للحياة والأحياء[1].

و ـ الشكوى في أدبه:

إن أول ما يلوح لنا في معظم ما خط يراعه هو أبو حيان الشاكي الباكي المنسحق تحت وطأة الفقر والحرمان القلق الركائب الذي لا يستقر في مكان إلا ويزعجه أمر إلى ارتياد سواه، متنقلاً بين بغداد والري ونيسابور وواسط وشيراز[2].

فليس بين مفكري العرب ومتكلميهم من هو أحب إلى نفسه من أبي حيان رجل الاستجداء بلا منازع. فقد مل الرجل حياة الشظف منطق الصوفيين الزاهدين المنصرفين عن دنياهم إلى آخرتهم، وعز عليه ألا ينعم نفسه بمغريات الدنيا، لذلك توقح ومد يده بإلحاح وإلحاف، وأراق ماء

(١) حسن نور الدين، الفردية أو الأنا في شخصية أبي حيان التوحيدي، مجلة الفكر العربي العدد ٥٤، ص ٨٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٩١.

وجهه في ذل السؤال ومهانة الطلب من أجل بغية رخيصة فانية، ويظهر هذا واضحاً جلياً في شكواه إلى صديقه أبي الوفاء المهندس: (إلى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية والقميص المرقع وباقلي درب الحاجب وسذاب درب الرواسين.

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون، قد والله بُح الحلق وتغير الخلق، الله الله في أمري، اجبرني فإنني مكسور، إسقني فإنني صدٍ، اغثني فإنني ملهوف أشهرني فإنني غفل حلني فإنني عاطل، قد أذلني السفر من بلد إلى بلد وخذلني الوقوف على بابٍ باب، ونكرني العارف بي وتباعد عني القريب مني)، ثم يقول له في مكان آخر: (خلصني أيها الرجل من التكفف، انقذني من لبس الفقر، أطلقني من قيد الضر، إشتريني بالإحسان، أنفق جاهك فإنه بحمد الله عريض وإذا جدت بالمال فجد أيضاً بالجاه فإنهما توأمان)[1].

ثم يشتط به الأمر فيعرض كرامته وأدبه للمهانة والمدح الرخيص:

أنا سامع مطيع وخادم شكور، ومثلي يهفو ويجمح

---

(١) الامتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٢٢٦/٢٢٧.

ومثلك يعفو ويصفح وأنت مولى وأنا عبد، وأنت آمر وأنا مؤتمر وأنت مصطنع وأنا صنيعة وأنت منشيء وأنا منشأ وأنت أول وأنا آخر[1].

ويتابع أبو حيان متحدثاً عن نفسه وما يخالجها من أسى ولوعة وما تواجهه من إهمال ونكران:

أيها الكريم ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إلي في كل شهر من هذا الرزق المقتر الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهماً مع هذه المؤونة الغليظة والسفر الشاق والأبواب المحجبة والوجوه المقطبة والأيدي المسمرة والنفوس الضيقة والأخلاق الدنيئة.

أيها السيد أقصر تأميلي، إرع ذمام الملح بيني وبينك وتذكر العهد في صحبتي، طالب نفسك بما يقطع حجتي، دعني من التعليل الذي لا مرد له والتسويف الذي لا آخر معه[2].

فأبو الوفاء المهندس سيد التوحيدي وعلة كيانه وصنيعته ومنشئه وآمره وإذا سلمنا جدلاً أن أبا حيان كان في غاية الفقر والحرمان، ولكننا لسنا معه في ما أورده من عبارات ولا تدل

---

(١) الامتاع والمؤانسة، ج ٢/ص ٢٢٧.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، ج ٢/ص ٢٢٧.

إلا على معاني الخسة والحقارة والجشع والولاء الأعمى والتخاذل والاستعطاف المذل وإذا كان يتحدث عما تعانيه نفسه وعما تواجهه من إجحاف ومماطلة وصدود وفقر مدقع، فهذا لا يقر له أسلوب التخلي عن المروءة والكرامة، وكان باستطاعته كما يقول زكي مبارك (أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويقبل بنفس حازمة على استدرار إحدى الصناعات، ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه)[1]، ثم لماذا ظن أن استمراره رهن بمشيئة هذا أو ذاك. ولربما يكون ما أقدم عليه صورة لما كان الناس عليه آنذاك من التكسب الرخيص على أعتاب الملوك والسلاطين. ومتى أصبح الأدب رهينة القصور خرج عن دوره وهدفه وغايته ليصبح في خدمة الأطماع.

ان الذي نفهمه أن الأدب يدعو الإنسان إلى احترام ذاته وإكرامها فما بال التوحيدي يذل ذاته ويهينهاويسحقها رغم ما هو عليه من علم وفضل، والذي قال فيه ياقوت انه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ولو جئنا لنعتبرها أنها صيحات عاتية في وجه مصاصي دماء الشعب وناهبي ثرواته ومغتصبي مقدراته فهي لا تكون بهذا الأسلوب المبتذل الرخيص.

(١) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ص ١٦٦.

إن أبا حيان لا يكتفي بالاستجداء والشكوى فهو يطلب إلى جانب المال مركزاً عالياً بلغ به الأمر حد التكالب عليهما جميعاً.

فالتوحيدي واحد من هؤلاء الذين اتخذوا الأدب وسيلة للبقاء والربح وخدمة الأطماع والميول. وها هو يعترف اعترافاً صريحاً بأن الفقر يخرج المرء عن دينه ويسلبه مروءته وعزة نفسه حيث يقول: (الفقر ليس لصاحبه عياذ من التقوى ولا عماد من الصبر ولا دعامة من الأنفة واصطبار على المرارة، وهو جالب الطمع وكاسب الجشع والضرع وهو الحائل بين المرء ودينه بل هو سد دون مروءته وأدبه وعزة نفسه)[1].

والتوحيدي هنا يتحدث عن نفسه ويوجد المبررات لشكواه وتذمره واستعطافه المهين، ولسنا ندري إن كان الفقر قد ناله فعلاً إلى هذا الحد، وهو كما نعلم يعيش منفرداً وحيداً لم تكن ترهقه أعباء الأسرة ومشاغلها ومتطلباتها. والحقيقة تُقال إذ كان الفقر برأي أبي حيان يسلب الإنسان مروءته فهو في الحقيقة قنبلة الثورة الموقوتة ضد الظالمين والمغتصبين:

---

(١) مثالب الوزيرين، ص ٣١٤، دمشق ١٩٦١ك. زكريا ابراهيم، أبو حيان التوحيدي، ص ٧٦.

عجبت ممن لا يجد ما يأكله، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه. بينما نحن نرى أن أبا حيان قد شهر بدل ذلك سلاح التذمر والشكوى والبكاء والاستجداء.

وها هو يكرر شكواه على مسامع ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي: (والله إني لواد مخلص، وعبد طائع، ورجائي اليوم أقوى من رجائي أمس وأملي غداً أبسط من أملي اليوم. أشكو إليك الأرق بالليل فكراً فيما يقال وتحفظاً مما ينال وتوهماً لما لا يكون. وأرجو ان شاء الله ألا أحرم هبة من ريحك ونسيماً من سحرك وخيرة بنظرك، والحمد لله الذي معاذي إلى الوزير الكريم البر الرحيم، والمنة لله الذي جعلني من عفاة جوده ومصطلي ناره وحاملي نعمته وطالبي خدمته، فقد ناديت الوزير حياً سامعاً وخيراً جامعاً وهززت منه صارماً قاطعاً وشهاباً ساطعاً، واستسقيت من كرمه سحاباً هاطلاً وأسأله أن يجنبني مرارة الخيبة وحسرة الإخفاق وعذاب التسويف)[1]. فهو يطمئن نفسه حيث حلت في فناء الجود ومراتع الخصب والكرم، ويشكر ربه ويحمده على النعمة التي أسبغها عليه إذ ألجأه إلى جناب ذلك الوزير وجعله من خدمه ومساعديه وأعوانه وأزلامه ثم لا يلبث أن يعلو

(١) الامتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٢٢٢.

صوته فيستصرخ في الوزير الضمير الحي ويسأله ألا يخيب آماله بعد أن خيبها غيره، فقد عقده الصدود والتجاهل وخلق في كيانه أزمة نفسية حادة ظلت آثارها بارزة حتى نهاية حياته، وهو إذا تقرب إلى الوزير فذلك إشباعاً لنفسه المتهالكة على المجد والمال، وأملاً في حظوة ينالها ومكانة ترضي طموحه وتخلصه من عذاب النفس ومرارة الخيبة والمماطلة. حتى إذا تقبل الوزير منه ذلك ووعده خيراً انفرجت أساريره وابتسمت آماله، وأخذ يخاطب نفسه طالباً منها أن ترتع هانئة في مرابع الفخر والجود فيقول: (كنت وصلت إلى مجلس الوزير وفزت بالشرف منه وخدمت دولته كل ذلك أملاً في جدوى آخذها وحظوة أحظى بها وزلفى أميس معها ومثالة أحسد عليها، فتقبل ذلك كله ووعد عليه خيراً ولم يزل أهله، وانقلبت إلى أهلي مسروراً بوجه مسفر ومحيا طلق وطرف عازم وأمل قد سد ما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس هذا معان الوزير ومعمره وجنابه ومحضره فانشرحي مستفتحة واطمئني راضية مرضية)[1].

فأبو حيان يبدو معلقاً بين اليأس والرجاء، بين الخيبة والأمل، كما نلمح شخصيته من بين السطور قلقة شاكية نادبة

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٢.

هم الفقر والحرمان حيناً، منشرحة حيناً آخر لأنها وصلت إلى المحجة التي كانت تنتظرها، إلا أن القدر يأبى أن يكون التوحيدي كما يريد هو لنفسه غنياً بالمجد والشهرة والمال، فعندما قتل الوزير ابن سعدان سنة ٣٧٥هـ واستوزر صمصام الدولة عبد العزيز بن يوسف أحد الواشين بابن سعدان فرَّ أبو حيان إلى شيراز متردداً هناك على المتصوفة أهل العزلة والتأمل يعيش معهم في فقر وهمول ذكر وأضحى الناس في تصوره سباعاً ضارية وكلاباً عاوية وعقارب لساعة وأفاع نهاشة[١]. وعزّ عليه ألا يكرم الأدب بشخصه، بينما يرى أصدقاءه وزملاءه يتقربون من أولي الأمر فينالون الحظوة والمكانة فنقم على الناس والمجتمع وأصبح يعيش في عالم ذاتي خاص وانطوائية مميتة إلى أن بلغ به الأمر حد الكارثة والأزمة النفسية الحادة: (لقد أمسيت غريب الحال غريب اللفظ غريب النحلة مستأنساً بالوحشة ملازماً للحيرة، محتملاً الأذى يائساً من جميع من ترى، فشمس العمر على شفا وماء الحياة إلى نضوب)[٢]. فأقدم على إحراق كتبه أعز ما يملك ونتاج قرن من الزمن وذلك نتيجة لفشله الذريع فيما كان يأمله

---

(١) الإشارات الإلهية، ص ٨٨ ـ زكريا إبراهيم، ص ٨٢.

(٢) التوحيدي، رسالة الصداقة والصديق، القسطنطينية ١٣٠١ هـ، ص ٥ و ٦، زكريا إبراهيم، ص ٥٨.

من مجد عريض وهو يصرح بذلك قائلاً: (وما جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب، وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليهما وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرهما)[1].

ويتابع الكلام عن أسباب إحراقه كتبَهُ: (ثم اعلم أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليها طالباً، على أني جمعت أكثرها للناس لطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم فحرمت ذلك كله. كيف أتركها وناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، وقد اضطررت بينهم بعد الشهرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم. فها قد أصبحت في عشر التسعين وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة)[2] (ولي في إحراق الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم)[3].

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء، ج ١٥/ص ٢٣.
(٢) المرجع نفسه، ج ١٥/ص ١٨ و ١٩.
(٣) المرجع نفسه، ج ١٥/ ص ٢١.

إذن فلتنزل النار صواعق عاتية على كل ما صرف في سبيله ضوء عينيه وعصارة قلبه وثمرة عمره الطويل.

ز ـ الازدواجية في شخصيته:

أشرنا فيما سبق إلى أمثلة من رسائل أبي حيان المشتملة على وصف الذات، ذاته الشاكية من مرارة الفقر وخمول الذكر، المتشائمة من الحياة والاحياء.

وحديث أبي حيان عن نفسه ووجدانه يتوضح كثيراً عبر فصول مدهشة في كتاب الاشارات الإلهية حيث نلمح من خلالها شخصيته المزدوجة القلقة الهائمة في لجة من المآسي وبحر متلاطم من الحزن العميق، مما يدفعنا إلى السؤال، أين ذاك الرجل الساخط على الفقر والفاقة من هذا الرجل الزاهد العابد القانع الراضي برحمة الله، انظر إليه وهو يخاطب نفسه منهياً إياها عن طريق الشر والشكوى: (يا ساعياً في الشر والفساد إجعل لنفسك غاية تقف عندها، يا شاكياً ربه إلى خلقه بقوله: رزقي قليل وحظي نزير وحالي قاصرة وحاجتي متصلة، لا تفعل واستيقن أنه ناظر لك في حالتي يُسرك وعسرك وأنه أعلم بتدبيرك وأحفظ لمصلحتك).

وإذا كان أبو حيان فيما سبق يلح في السؤال ويسأل

لنفسه الرفعة والمجد والترف فإنه هنا ينسف هذا المفهوم من أساسه ويظهر صراع محتدم بين نفسه ونفسه، نفسه الطماعة الجشعة المتهورة، ونفسه الزاهدة بمتع الدنيا والقانعة بما قسم الله. فاستمع إليه يحذر نفسه من نفسه: (يا هذا أعلى الدنيا تعرج، وفي طلبها تلجج، لم هذا وكيف به، أين حصافتك وبصيرتك وأين نظرك واختبارك أما ترى وليس فيها مغنى إلا فيه مبكى ولا ملهى إلا وعنده مهوى ولا مرعى إلا ودونه مرثى، أما ترى صروفها وفي صروفها حتوفها)[1].

ويتابع التوحيدي حديثه عن نفسه فيوبخها وينزل عليها سيلاً من غضبه ومقته مما يدل على إحباطه في كل ما يتوخاه، فزهده كما هو واضح لم يكن عن قناعة منه بقدر ما كان نتيجة قصر ذات اليد، ولو كانت يده طائلة وأحواله متيسرة لما قصر عن الاستمتاع بمباهج الدنيا والأكل من طيباتها والغرف من مسراتها، ويظهر لنا ذلك الصراع المحتدم في نفسه، والذي يكشف عن ازدواجية في شخصيته، ولعل هذه الازدواجية وهذا القلق المستمر هما اللذان دفعاه إلى إحراق كتبه وقطع كل صلة بينه وبين العالم الخارجي، فاسمعه مخاطباً نفسه قائلاً: (إن باطنك أخبث من ظاهرك، وظاهرك أعبث من

---

(١) الإشارات الإلهية، ص ٢٨٥.

باطنك، وإشارتك أنكد من عبارتـك وعبارتـك أفسد من إشارتك وكلك مستغيث من بعضك، وبعضك هارب من كلك، وليلك يضج من نهارك، ونهارك يبرأ إلى الله من ليلك)[1]. والمتمعن بهذه العبارات يكتشف مدى إحساس التوحيدي بالذنب، واعترافه بالخطيئة وبرمه من كل ما كان يفعله وثورته العنيفة على أبي حيان الراكض وراء المادة والشهوات.

ويبلغ التشاؤم والإحساس بالذنب بأبي حيان أشده فينعت نفسه بالضال والشرير والحي الميت والرازح تحت سيل من المخازي والعيوب مما يكشف عما في داخله من ألم مرير وحـزن فادح عمـا في كيانـه من تمزق واسوداد أفق فيقول: (إن مُكلمك لشر منك كثيراً وأقدم منك في الضلال بعيداً وما ينطق بما تسمع إلا ليكون ذاك حجة عليه، وبالاً بين يديه، ولولا أن ذاك كذلك، لكان له في استماعه من نفسه شاغل عن استماعه لغيره، وهي محنة كما ترى وبلاء كما تسمع، فهلم فاندبه لأنه إن كان حياً في الظاهر، فإنه ميت في الباطن، وعدد مخازيه فإنها بادية، وقل فيه، فإن فيه متسعاً للمقال). ثم ينعي نفسه لنفسه وهو في وضع مأساوي

---

(١) الإشارات الإلهية، ص ٢٠٧.

يثير الشفقة والعطف: (هيهات الرحيل والله قريب والثواء قليل والمضجع مُقِض والمقام ممض والطريق مخوف والمعين ضعيف والاغترار غالب والله من وراء هذا كله طالب)[1].

ولعل أوضح صورة تكشف عن قلق الرجل وتبرز التناقض والازدواج في شخصيته وسلوكه ما ناجى به محبوبه حيث قال: (يا حبيبي أما ترى ضيعتي في تحفظي، أما ترى تفرقي في تجمعي، أما ترى ضلالي في اهتدائي، أما ترى رشدي في غيي، أما ترى عيي في بلاغتي، أما ترى ضعفي في قوتي، أما ترى كموني في ظهوري، أما ترى دائي في دوائي، أما ترى عليَّ هذا إلى أن يفنى الورى، وينفد الثرى ويفقد السرى)[2]. ويبدو في شخصية التوحيدي مما ورد التمزق النفسي والتفكك، وما هذه التناقضات المتتابعة إلا صورة عن عمق المأساة التي هبطت في أغوارها السحيقة نفسه القلقة المعذبة وعلو المكانة التي تتمنى التحليق في أجوائها هذه النفس الطموحة. وبين حالتي اليأس والرجاء بين مغريات الدنيا وصورة الآخرة، ظلت نفسه تتأرجح

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

وتتململ دون أن تنجح في القضاء على داء التناقض الذي ظل ينخر في أعماقها، وحين أحس بانقضاء العمر مال إلى الزهد نتيجة للضعف والخور (أنا نطقت بهذه الألغاز بعد سبعين سنة وقد تحطمت قناتي وتفللت صفاتي وفقدت شهوتي ولذاتي ومنيت بموت احبتي ولداتي)[1].

وهكذا ظل أبو حيان يتغنى بنفسه ويبكيها ويندبها عبر عشرات السنين، .دون أن يظفر بأي من أحلامه وآماله التي تكسرت على صخرة شكواه وتذمره وأنينه الموجع حتى مات سنة ٤١٤هـ على حد التقريب.

لقد آلمه الفقر تلك المشكلة المستمرة عبر كل جيل وتاريخ، فحاول أن يدفعه عنه بالشكوى والتوجع والاستجداء. وهو إن كان يشكو ويلح في السؤال، فما ذلك إلا صورة عن مشكلة الطبقية في العالم مشكلة فقراء وأغنياء، ميسورين ومحرومين[1].

ح ـ فكره وعقيدته:

يعتبر أبو حيان واحداً من ألمع مفكري العربية وأدبائها، فقد أطلق عليه ابن خلكان لقب فيلسوف الأدباء،

---

(١) حسن نور الدين، ص ٩٥.

وأديب الفلاسفة، ذلك أن كتبه تجمع إلى عمق الفكرة أناقة العبارة ورشاقة الأسلوب حتى لقبه بعض المؤرخين بالجاحظ الثاني.

لقد كان أبو حيان خصب الفكر ثرّ العطاء متبحراً بعمق في العديد من ألوان المعرفة، ألف أكثر من عشرين كتاباً من عيون الفكر العربي وآدابه، ولكن حين ضاقت به أسباب الرزق، حقد على الناس جميعاً لأنهم جحدوا علمه وأدبه، وتبلور حقده عليهم في إحراق كتبه حتى يحرم الناس الانتفاع بها، ولم يسلم منها إلا ما كان من نسخ في أيدي الناس، وهو يعبر عن ذلك بقوله: «إني جمعت أكثرها للناس لطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم، فحرمتُ ذلك كلَّه... ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم».

ولقد حير أبو حيان المؤرخين فيما يتعلق بعقيدته، فبينما يخلع ياقوت الحموي عليه لقب المتصوف وفيلسوف الأدباء، يتهمه ابن الجوزي بالزندقة ويُجسم من خطره

فيجعله أخطر الزنادقة جميعاً، حيث يقول: «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، والتوحيدي، والمعري، وشرهم التوحيدي، لأنهما صرحا ولم يصرح»[1].

ولم يكن حظ التوحيدي بعد وفاته سنة ٤١٤هـ، على وجه التقريب، بأحسن منه في حياته، فقد كان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التي ألفها وتبلغ نحو العشرين إلا القليل، وهي مملوءة بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانتفاع بها، ولعل أقوم كتبه وأنفعها كتابه الامتاع والمؤانسة وهو كتاب ضخم يقع في ثلاثة أجزاء، سوف نستعرضه فيما بعد في حينه نظراً لأهميته من حيث المحتوى والأسلوب فهو خير ما نستشهد به على كلامنا عن الرجل وأهميته في دنيا العلم والأدب.

ق ـ أسلوبه:

أما أسلوبه فإنه يتراوح بين الرقة والجفاف تبعاً للموضوع الذي يود معالجته، حيث يبدو رقيقاً منساباً عند معالجته مواضيع إنسانية، ورصيناً جافاً في المسائل التي يغلب عليها الطابع الفلسفي والمنطقي، وإن كان يسير على

١ـ د. مصطفى الشكعة، مذكرات في المكتبة العربية، بيروت، ١٩٧٢ ص ١١٧.

خطى الجاحظ في الإرسال، والتقطيع إلا أنه لم يكن يملك رشاقة الجاحظ وخفة ظله، رغم أن بعضهم أطلق عليه لقب الجاحظ الثاني، إلا أن موضوعاته لم تكن من بنات الحياة التي يهواها الناس، بل كان ذا منهج منطقي، موسوعي، فلسفي، وهذا ما كان يبعده عن طبقات المجتمع إلا النخبة من المثقفين.

ومهما يكن فأبو حيان التوحيدي لم يكتب بعده في النثر ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيراً عن شخصية صاحبه[1]. فقد جمع في أسلوبه الصورة الحسية والمعنى العقلي العميق.

---

(١) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص٤١٦

٣ ـ كتاب الإمتاع والمؤانسة

أ ـ محتواه ومنهجه:

إن لتأليف هذا الكتاب من قبل أبي حيان قصة ممتعة، ذلك أن أبا الوفاء المهندس، وهو محمد بن محمد يحيى البُوزجاني، أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها، وكان العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ـ وهو القيم بهذا الفن ـ يبالغ في وصف كتبه، ويعتمد عليها في أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله، وكان عنده من تآليفه عدة كتب. . . وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان، وقدم العراق سنة «٣٤٨هـ وتوفي سنة ٣٧٦هـ». وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم، وهو واحد من أفراد منتدى عند الوزير ابن سعدان يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النصراني، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) و(تجارب الأمم) وأبو بهرام بن اردشير، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور، ومن الكتّاب

أبو عبيد الخطيب الكاتب، وأبو حيان صاحبنا، وأبو الوفاء المهندس الذي نتحدث عنه، فقد كان للوزير ابن سعدان مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتفاكهون ويتنادرون ويذهبون في فنون الحديث كل مذهب، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون في الفلسفة والأخلاق والأدب. وكان ابن سعدان يباهي بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له، مثل المهلبي، وابن العميد، والصاحب بن عبَّاد، فيقول في أصحابه هؤلاء: «ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير... وأن جميع ندماء المهلبي لا يفون بواحد من هؤلاء، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَنْ فيهم، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون، والمهم في الأمر أن أبا الوفاء هذا كان من ندماء ابن سعدان، وقد وصفه ابن سعدان في جملة ما وصف من أصحابه. فقال: «وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة المطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادي إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد».

كان أبو الوفاء صديقاً لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله

العارض المعروف بابن سعدان، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير، ووصله به، ومدحه عنده، حتى جعل الوزير أبا حيان من سُماره، فسامره مدة أربعين ليلة كان يحادثه فيها، ويطرح الوزيرُ عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان؛ ثم بعد ذلك طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه ما دار بينه وبين الوزير من حديث وذكّره بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته، وسوء عادته، وقلة مرانته، وحقارة لبسته، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه، ويستوحش منه، ويوقع به عقوبته، وينزل الأذى به، فلم يكن من أبي حيان إلا أن أجاب طلبه ـ وحسناً فعل ـ ونزل على حكمه، وفضل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومُر؛ وهو يقول في ذلك مخاطباً أبا الوفاء: «. . . هذا وأنا أفعل ما طالبتني به من سرد جميع ذلك، إلا أن الخوض فيه على البديهة في هذه الساعة يشق ويصعب ما جرى من التفاوض، فإن أذنتَ جمعته كله في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل والحلو والمر والطري والقاسي، والمحبوب والمكروه، فكان من جوابك لي: إفعل. ونِعْمَ ما قلتُ». فكان من ذلك كتاب «الإمتاع والمؤانسة». وعندما أراد أبو حيان أن يُدوّن لأبي الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه

ونمق الحديث. وكان يدون جزءاً منه ويرسله إلى أبي الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا. . . وحدَّث هو نفسه عن ذلك كله في أول الجزء الثاني فقال: «قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمتَ لي القيام به، وشرفتني بالخوض فيه، وسردتُ في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمتُ بها مجلس الوزير، ولم آل جهداً في روايتها وتقويمها، ولم أجنح إلى تعمية شيء منها، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض، وصلة المحذوف، وإتمام المنقوص، وحملته إليك على يد «فائق» الغلام، وأنا حريصٌ على أن أتبعه بالجزء الثاني، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله». وقد أنجز أبو حيان وعده، وأرسل إليه الجزء الثاني على يد غلامه فائق أيضاً. ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير، وقال في أوله: «قد أرسلت إليك الجزءين الأول والثاني، وهذا الجزء - وهو الثالث قد ألقيت فيه كل ما في نفسي من جد وهزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وأدب، واحتجاج واعتذار. . . ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام في خاص أمري». وعلى هذا الوضع ينتهي الكتاب. وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد في الكتاب؛ فإنه في حديثه مع الوزير عاب أشخاصاً من رجالات الدولة الذين يستطيعون إيذاءه، فرجا أبا الوفاء أن يحفظ هذا الكتاب سراً، فقال:

«وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيَّابين، بعيدة عن تناول أيدي المفسدين المنافسين، فليس كل قائل يسلم ولا كل سامع ينصف». ولسنا نستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيد في الكتاب، واخترع أشياء لم تجرِ في مجلس الوزير، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التي دعته أن يرجو أبا الوفاء في أن يكون الكتاب سراً، فإنه ألف الكتاب في حياة الوزير، وخشي أن يطلع عليه الوزير فيعلم مقدار ما تزيد. أما أنه ألفه في حياة الوزير، فالدليل عليه ما جاء في نسخة ميلانو: «أنشئت هذه الرسالة في رجب سنة ٣٧٤هـ) والمعلوم أن الوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥هـ كما هو معروف.

إن لكتاب الإمتاع والمؤانسة من عنوانه نصيباً كبيراً، فهو يمتع قارئه بما حوى من أدب وعلم، ويؤنسه بما ضم من طرف وحوار، وقد صنف الدكتور الشكعة[1] الكتاب مع مجموعة الأمالي والمجالس، لأنه تسجيل لأحاديث وأمالٍ. ومحاضرات ومناقشات ألقيت في أربعين ليلة، ألقاها

(١) الدكتور مصطفى الشكعة، استاذ الأدب العربي بجامعتي عين شمس وبيروت العربية.

أبو حيان على مسامع ابن سعدان الوزير في بغداد؛ حيث عالج فيها الكثير من الموضوعات من أخبار أدبية، وشعر، ونثر، ولغة، وفلسفة، ومنطق، وسياسة، وحيوان، وطعام، وشراب، ومجون، وغناء، وموسيقى، وتاريخ، وتحليل لشخصيات العصر من ساسة وعلماء وفلاسفة وأدباء، وتعرض للحياة الاجتماعية المعاصرة له بالدرس والعرض والتحليل، وكانت تجري أثناء هذه الأحاديث مناقشات بين الوزير وأبي حيان تدل على ما كان لهذا الوزير من مشاركة في مختلف الموضوعات: ـ فلا عجب ـ لقد كان ذلك العصر عصر الندوات العلمية الدائمة التي تعقد في قصور الأمراء والوزراء، وكان من أشهر هذه الندوات، ندوة عضد الدولة بن بويه في شيراز، وندوة ابن العميد في الري، وندوة الصاحب بن عباد في أصبهان، وندوة الوزير المهلبي في بغداد، وقد سبقها في بغداد، ندوة ابن سعدان هذا الذي وُزر لصمصام الدولة لمدة ثلاث سنوات على وجه التقريب بين سنة ٣٧٣، ٣٧٥هـ، لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة. وقد جاء في كتاب «ذيل تجارب الأمم» لأبي شجاع: «وفيها أي في سنة ٣٧٣هـ خُلع على أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خِلع الوزارة ـ وكان رجلاً باذلاً لعطائه، مانعاً للقائه، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من

درجة داره إلى زبزبه[1]؛ ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه في أكثر مطلبه... فبسط يده في الإطلاقات والصِلات... وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والحواشي من أموالهم وأرزاقهم... وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق في وقت نظره من غلاء سعر، فتطيرت العامة ورجموا زبزبه، وشغّبوا الديلم عليه، وهجموا على نهب داره، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردَّهم».

وقد ظل ابن سعدان في الوزارة إلى سنة ٣٧٥هـ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به. وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعيّن أباه كاتباً لوالدة صمصام الدولة لما مات كاتبها، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة: «إن ابن سعدان قد استولى على أمورك، وملك عليك خزائنك وأموالك، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه. وتمت المكيدة ولم يعيَّن أبوه. ثم قُبِضَ على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن، واستوزر صمصام الدولة هذا الواشي أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، ولم يكتف أبو القاسم بمحبس ابن سعدان فانتهز فرصة خروج ثائر على صمصام

(١) الزبزب: ضرب من السفن.

الدولة اسمه «أسفار بن كردويه» يريد خلعه، فدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا الثائر وأن الذي جرى كان من فعله وتدبيره، وأنه لا يؤمَن ما يتجدد منه في محبسه، فأمر صمصام الدولة بقتله، فقتل سنة ٣٧٥هـ.

كما كان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان في كتبه، فهو واسع الاطلاع، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على ذلك حواره الذي يحكيه أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة وفي المقابسات، فهو يسأل أسئلة عميقة، وينقد الإجابة عنها نقداً قيّماً. وفوق ذلك كان له في وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء. وكان يباهي بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له.

وقال القفطي في وصف كتاب الإمتاع والمؤانسة: «وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيًا وتوسَّطه محدِّثاً، وختمه سائلاً ملحفاً»[1].

---

(١) مقدمة الامتاع والمؤانسة، ص «م».

فقد قسم أبو حيان كتابه إلى ليالٍ كما أسلفنا، فكان يدون كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له واجبته. وكان الذي يقترح الموضوع دائماً هو الوزير. وأبو حيان يجيب عما اقترح، وكان الوزير يقترح أولاً موضوعاً حسبما اتفق وينتظر الإجابة، فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها، فقد يسأله سؤالاً يأتي في أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبي سليمان المنطقي، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم، وهكذا، يستطرد من باب لباب، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالباً: «ملحة الوداع» فيقول الوزير ـ مثلاً ـ: إن الليل قد دنا من فجره، هات ملحة الوداع. وهذه الملحة تكون ـ عادة ـ نادرة لطيفة أو أبياتاً رقيقة، وأحياناً يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شعراً بدوياً يشم منه رائحة الشيح والقيصوم وهكذا.

وأحياناً يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة في رسالة؛ فقد سأله مرة عن المصادر التي تجيء على وزن تفعال، فأجابه أبو حيان عن بعضها، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء في اللغة منها.

وأحياناً يتخذ الكلام شكل حوار. فأبو حيان ـ مثلاً ـ

يروي عن ديوجانيس أنه سُئل: متى تطيب الدنيا؟. فقال: «إذا تفلسف ملوكها، وملك فلاسفتها»؛ فلم يرض الوزير عن هذا، وقال: إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرّغ نفسه للدار الآخرة؛ فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً[1] لها، وهو محتاج إلى سياسة أهلها، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفاسدها! ـ وأطال في ذلك ـ وفي كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبي حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك.

وأحياناً يطلب إليه الوزير أن يحضّر له رسالة في موضوع، ثم يتلوها عليه في جلسة مقبلة كما فعل مرة، إذ كلفه أن يكتب له في المجون والملح، ففعل أبو حيان وقرأها عليه في مجلس. قال أبو حيان: «فلما قرأتها على الوزير قال: ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوي هذه الوصايا والملح».

وآونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليه في اللغة والفلسفة والاجتماع، يعرضها على أبي حيان ويطلب منه الجواب فيفعل.

ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبي حيان برقعة فيها

---

١ ـ قالياً: كارهاً، مبغضاً.

أسئلة يطلب إليه أن يفكر في الإجابة عنها، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها؛ كما حدث مرة أنه دفع إليه رقعة بخطه فيها مطالب، وقال: باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير، ومن تعلم أن في محاورته فائدة. وكان في الرقعة أسئلة منها عن الروح وصفته ومنفعته، وما المانع أن تكون النفس جسماً أو عرضاً أو هباء؛ وهل تبقى؟ وإن كانت تبقى فهل هي تعلم ما كان الإنسان فيه ههنا الخ. ويقول الوزير في آخر هذه الرقعة: «إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبي وجاثم في صدري، ومعترض بين نفسي وفكري، وما أحب أن أبوح به لكل أحد»؛ ويأمره بأن يكتم خطه فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبي سليمان فلينسخها بخطه هو. ثم سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير، وعلى هذا النمط يجري تأليف الكتاب.

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعاً ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث. حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن؛ من أدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه.

وأيًّا ما كان، فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه، يلقي نوراً كثيراً على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع ـ أعني في العصر البويهي ـ وهو عصر مغبش بالظلام فإنه يتعرض لكثير من الشؤون الاجتماعية في ثنايا حديثه، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان ومحاسنهم ومساويهم، ويصف العلماء، ويحلل شخصياتهم، وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القُبَّائي في المفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي، ورأي العلماء في الشعوبية والمفاضلة بين الأمم، إلى كثير من أمثال ذلك.

وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة النص الوحيد الذي يكشف لنا عن أسماء جماعة إخوان الصفاء، وقد نقله القفطي منه، إذ كان ابن سعدان قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألفها؛ وعن القفطي نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفاء.

كما يحتوي الكتاب على فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة، فهو يصف كثيراً حالة الشعب في عصره

وموقفهم من الأمراء والملوك، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك.

وقد يعرض أحياناً للحياة الاجتماعية الشعبية فيذكر عدد القينات في الكرخ فيقول: «ولقد أحصينا في سنة ٣٦٠هـ ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن. هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط أو ثمل في حال أو خلع العذار في هوى».

ثم إن أسلوبه في تقسيمه إلى ليال: وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار، يجعله لذيذاً شيقاً، أو على حد تعبيره هو ـ ممتعاً مؤنساً ـ فهو أشبه شيء بألف ليلة وليلة، ولكنها ليال ليست للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام، إنما هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء، فهو يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة، كالبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك، كما يتعرض لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة التي جرى فيها الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما، فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبدع تصوير الحياة الشعبية في ملاهيها وفتنها وعشقها، فكتاب

الإمتاع والمؤانسة يصور حياة الأرستقراطيين، ونقصد الذين يجمعون بين الارستقراطية المادية والعقلية؛ كيف يبحثون، وفيم يفكرون، وكلاهما في شكل قصصي مقسم إلى ليالٍ، كما سنلاحظ ذلك من خلال استعراضنا لبعض هذه الليالي، ولكن حظ الخيال في الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة.

وأسلوب أبي حيان في الكتاب أسلوب أدبي راقٍ كعهدنا في كل كتاباته يحب الازدواج ويطيل في البيان، ويحتذي حَذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولاً؛ ولكن الذي أغمض أسلوبه في هذا الكتاب تعرُّضه كثيراً لمسائل فلسفية عميقة قد عزّت على البيان، ودقت عن الإيضاح، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة إلى موضوعات أدبية: كوصفه لفقره وبؤسه ـ مثلاً ـ أو وصفه للكرم وفوائده، أو وصفه للسان والبيان، جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع.

ب ـ نَسخ كتاب الامتاع والمؤانسة:

يقول الأستاذ أحمد أمين في مقدمة الكتاب: «ان للكتاب ـ فيما أعلم ـ نسختان، لا أعلم لهما في مكاتب العالم ثالثة. فأما النسخة الأولى فكاملة، وهي تقع في خمسة

أقسام. وقد جاء في طرة الجزء الثاني ما نصه: «رسم لخزانة السلطان الأعظم، مالك رقاب الأمم مولى ملوك العرب والعجم، باسط الأمن والأمان، ناشر العدل والإحسان، أبي المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازي «محمد الأيوبي» خلد الله تعالى مملكته وسلطانه، وأعلى في الخافقين عزه وبرهانه». فالجزء الثاني كما هو ملاحظ كُتب للعادل سليمان بن غازي الأيوبي.

وكان العادل سليمان هذا أديباً شاعراً، فقد جاء في (كشف الظنون) ذكر كتاب اسمه «الدر الثمين في سير الثلاثة السلاطين» وهم: «العادل سليمان الأيوبي وولده الأشرف أحمد وولده الكامل خليل». فسليمان هذا هو صاحب الخزانة المكتوب هذا الجزء برسمها. كما جاء في آخر هذا الجزء: «تمت الجزء الثاني من كتاب المؤانسة والإمتاع بحول الله وحسن توفيقه في شوال سنة خمسة عشر وثمانمائة على يد أضعف العباد شرف بن أميره في حصن المحروسة حماها الله تعالى عن الآفات والعاهات آمين يا رب العالمين».

وخط الجزء الثاني (وهو في ثلاثة مجلدات) مخالف لخط الجزء الأول (وهو في مجلدين) وإن يكن الخطان قريبي الشبه بعضهما ببعض، والجزء الأول غير مضبوط، والثاني

مضبوط بالشكل الكامل. وكلا الجزءين مملوء بالأخطاء الخطيرة وبالزيادة والنقص والتحريف، ويظهر أن الكاتبين من الخطاطين الذين يجيدون الخط ولا يحسنون الفهم. وكاتب الجزء الثاني يغلب على الظن أنه تركي لا يحسن العربية فهو يقول: «تمت الكتاب» بدل «تم الكتاب» ويقول: «في سنة خمسة عشر وثمانماية» بدل «خمس عشرة» وهذه ـ مع الأسف ـ هي وحدها النسخة التامة.

وهذه النسخة أخذها المرحوم أحمد زكي باشا بالفتوغرافيا من مكتبة طوب قبو سراي لما اطلع عليه وعرف قيمته. وقد أحضر النسخة الفوتوغرافية معه إلى القاهرة، واحتفظ بها في مكتبته الخاصة؛ وقد قرأ الكتاب، ووضع في الصفحة الأولى من كل جزء فهرساً بعدد الليالي وبعض الموضوعات، كما وضع أسماء الأعلام الواردة في الكتاب أمام كل صفحة، مما يدل على أنه كان يريد نشره، ويريد ترجمة الأعلام التي وردت فيهولكن لم يتعرض لتصحيح شيء مما فيه من أغلاط وقد توفي ـ رحمه الله ـ وهي في مكتبته الخاصة، فاشتراها السيد حمدي السفرجلاني الدمشقي، وباعها لدار الكتب المصرية.

والنسخة الثانية نسخة فوتوغرافية أخذت من أصل في

ميلانو، وهي ليست كاملة، وإنما هي قطع ثلاث: قطعتان من الجزء الثاني وقطعة من الجزء الثالث وهي مشوشة غير مرتبة، وقد استحضرها زكي باشا أيضاً، واحتفظ بها لنفسه، ثم بيعت لدار الكتب، ولم يُذكر في أية قطعة من القطع تاريخ نسخها، وخطها واضح وجميل أيضاً ومضبوطة. ولكنها في جملتها لا تقل في الأخطاء عن سابقتها. وقد كان في نية السيد حمدي السفرجلاني نشر المخطوطة قبل بيعها لدار الكتب، فاستنسخ نسخة منها، وقرأها مع بعض أفاضل دمشق، منهم الدكتور حسني سبح والسيد رشدي الحكيم وخليل مردم بك؛ واستظهروا بعض تصحيحات لما وجدوه في هذه النسخة من تحريف.

وبقيت بعد ذلك مملوءة بالأغلاط كثيرة الجمل والألفاظ التي تشبه الألغاز حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعي الجهد الشديد في تصحيحها. فعُرض على لجنة التأليف نشره، فوافقت على ذلك، وعهدت إلى الأستاذ أحْمد أمين والأستاذ أحمد الزين بتصحيحه؛ وقد بذلا معاً جهداً كبيراً في تصحيح المحرّف من ألفاظه، وتفسير غريبه، وشرح المشكل من عباراته، وتكميل الناقص من جمله، وضبط الملتبس من كلماته، والتعريف بكثير ممن ورد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة.

ج ـ كيف بدا التوحيدي من خلال كتابه:

ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً، وتوسطه محدثاً، وختمه سائلاً ملحفاً، جاء هذا القول على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع والمؤانسة بخط أهل جزيرة صقلية.

ونحن بدورنا عندما جئنا نتدبر الكتاب وننظر فيه رأينا أن نقر بصحة وصواب هذا الرأي، فهذا أبو حيان يستهل كتابه بكلام المتصوف الـواعظ الزاهد حيث يقول: قال أبو حيان التوحيدي: نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين، ووصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظفر بـالفوز والنعيم من قطع طمعه من الخَلق أجمعين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه وعلى آله الطاهرين.

... وربمـا قال بعض المتكلفين قـد قـال بعض السلف: ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أَخذ من هذه وهذه وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن.

إن أبا حيان المتصوف الزاهد لا يريد أن يجمع بين الدنيا والآخرة وأن يأخذ من هذه وهذه، فهو لا يـرضى بأنصاف الحلول فاما أن ينصرف بكليته إلى الدنيا وإما إلى الآخرة ولا يقبل بغير ذلك، وبهذا يقول: وربما قال آخر من

المتقدمين: (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً).

وهذه عنده أيضاً كلام منمق، لا يرجع إلى معنى محقق؛ ثم لا يلبث أن يجري مقابلة بينه وبين كلام السيد المسيح قائلاً: (أين هو من قول المسيح ـ عليه السلام ـ حين قال: الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بَعُدَ أحدكم من أحدهما قَرُبَ من الآخر؛ ومتى قَرُبَ من أحدهما بَعُدَ من الآخر.

إذاً في نظر أبي حيان المتصوف الزاهد لا يمكن أن تجتمع الدنيا والآخرة فإما هذه وإما تلك، فإما أن تنصرف انصرافاً تاماً إلى الدنيا، وإما إلى الآخرة ولا شيء غير ذلك يرضيه حيث يقول مكملاً عظته: وأين هو من قول الآخر: الدنيا والآخرة ضربان، متى أرضيت إحداهما أسخطتَ الأخرى، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأُخرى.

ويعلل أبو حيان ذلك بقوله: وهذا لأن الإنسان صغير الحجم، ضعيف الحول، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذ حظوظ بدنه وإدراك إرادته، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربِّه بأداء فرائضه والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه، فإن صَفُق وجهه وقال: نعمل تارة لهذه

الدار وتارة لتلك الدار، فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه؛ ومن تخنث وتليَّث لم يكن رجلاً ولا امرأة، ولا يكون أباً ولا أماً؛ وهذا كما نرى.

وأخوف ما يخاف التوحيدي الفقر، فهو الداء الذي ليس له دواء عنده إلا أصحاب الكرم الذين يتسعون في أحوالهم، يوسعون على غيرهم من سعتهم، ولكن هؤلاء الكرام ذهبوا إلى غير رجعة، وبهذا يقول: ونرجع فنقول: ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عياذ من التقوى، ولا عماد من الصبر، ولا دِعامة من الأنفة، ولا اصطبار على المرارة. وقد بُلينا بهذا الدهر الخالي من الدَّيَّانين الذين يُصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم، ويوسعون على غيرهم من سعتهم.

هؤلاء الذين إذا وُلوا عدلوا وإذا ملكوا أفضلوا[1] وإذا أعطوا أجزلوا، وإذا سُئلوا أجابوا وإذا أجابوا أطابوا، وإذا عالوا[2] صبروا وإذا نالوا شكروا؛ وإذا انفقوا واسوا، وإذا امتحنوا تأسوا. . . الذين كانت عادتهم جارية على الضيافة

---

(١) أنعموا.

(٢) افتقروا.

والتكرمة؛ في الأولى والعاقبة؛ وكانوا إذا تلاقوا تواصوا بالخير، وتناهوا عن الشر. . . فذهب هذا كله، وتاه أهله، وأصبح الدين وقد أُخلق لبُوسُه، وأُحِشَ مأنوسُه، واقتُلع مغروسه وصار المنكرُ معروفاً، والمعروف منكراً، وعاد كل شيء إلى كدره وخاثِره وفاسده وضائره.

بمثل هذا الوعظ ابتدأ أبو حيان المتصوف الزاهد كتابه، حتى إذا ما بلغ وسط الكتاب انصرف إلى الحديث، فإذا هو محدث بارع يستأثر بانتباه الجليس ويستحوذ على فكره وعقله، فاسمعه محدثاً:

. . . ثم جرى في حديث النفس ذكر بعض العلماء فإنه قال: إن نفسك هي إحدى الأنفس الجزئية من النفس الكليَّة، لا هي بعينها، ولا منفصلةٌ عنها، كما أن جسدك جزءٌ من جسد العالم لا هو كله ولا منفصل عنه. . . ولو قال قائل: إن جسدك هو كل العالم لم يكن مبطلاً، لأنَّه شبيه به، ومسلولَ منه، وبحق الشبه ـ بين الشيء والذي ـ يحكيه، وبحق الانسلال يستمد منه؛ وكذلك النفس الجزئية هي النفس الكلية، لأنها أيضاً مشابهة لها، وموجودة بها، فبحق الشبه أيضاً تحكي حالها، وبحق الوجود تبقى بقاءها، فليس بين الجسد إذا أُضيف إلى العالم، والنفس إذا قيست بالأخرى فرق، إلا أن الجسد معجون من الطينة، والنفس

مدبرةٌ بالقوة الإلهية؛ ولهذا احتيج إلى الإحساس والمواد، وإلى الاقتباس والالتماس حتى تكون مُدَّة الحياة الحسية بالغة إلى آخرها من ناحية الجسد، ويكون مبدأ الحياة النفسية موصولاً بالأبد بعد الأبد.

وهو حديث فلسفي موضوعه النفس والجسد وخصائص كل واحد منهما. وينتقل التوحيدي بعد ذلك إلى الحديث عن الزهاد وأصحاب النُّسك فيقول:

. . . وأما حديث الزهاد وأصحاب النُّسك، فإنه كان تقدم بإفراد جُزءٍ فيه، وقد اثبته في هذا الموضوع، ولم أحب أن أعزله عن جملته، فإن فيه تنبيهاً حسناً، وارشاداً مقبولاً، وكما قصدنا بالهزل الذي أفردنا فيه جُزءاً جِماماً للنفس قصدنا بهذا الجزء الذي عطفناه عليه إصلاحاً للنفس وتهذيباً للخلق، واقتداء بمن سبق إلى الخير واتباعاً لمن قصد النُصحَ؛ وشرف الإنسان موقوفٌ على أن يكون فاتحاً لباب من أبواب الخير على نفسه وعلى غيره، فإن لم يكن ذلك فلا أقل من أن يكون مقتفياً لأثر من كان فاتحاً قبله، ومن تقاعس عن هذين الأمرين فهو الخاسر الذي جهل قيمة نفسه، وضل عن غاية حياته، وحُرِم التوفيق في إصابة رُشده: والله المستعان.

ويُعَرِج بنا التوحيدي بعد هذا الحديث الأخلاقي إلى الكلام عن أحاديث وأقوال الأنبياء والصحابة والحكماء.

قال ابن مسعود: لو عرفت البهائم ما عرفتم ما أكلتم سميناً.

وقال الله عز وجل ـ لموسى ـ عليه السلام: حببني إلى عبادي. قال: وكيف أحببك؟ قال: ذكرهم آلائي ونعمائي.

وقال بعض الصالحين: مثل الدنيا ونعيمها كخابية فيها سُمٌّ وعلى رأسها عسل، فمن رغب في العسل سُقي من السم، ومثلُ شِدَّة الدنيا كمثل خابية مملوءة من العسل وعلى رأسها قطراتٌ من سُمّ، فمن صبر على أكلها بلغ إلى العسل وقال ابن السَّماك الواعظ: يُدرك النمام بنميمته ما لا يدرك الساحر بسحره.

وقال مالك بن دينار: الجلوس مع الكلب خيرٌ من الجلوس مع رفيق سوءٍ.

قال شقيق: اشتريت بطيخة لأُمي، فلما ذاقتها سَخِطت.. فقلت: يا أمي، على من تردِّين القضاء ومن تلومين، أحارثها أم مشتريها أم خالقها؟ فأما حارثُها ومشتريها فما لهما ذنب، فلا أراك تلومين إلا خالقها.

وقال الثوري: نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر، وفتنة القائد الجاهل. وقال النبي ﷺ: «سيكون في أُمتي علماء فُسَّاق، وقُرَّاءٌ جُهَّال.

ومن بين أحاديثه وقصصه اخترنا هذه القصة القصيرة وهي قصة دينية أخلاقية تحمل معنى الوعظ والإرشاد، والتي مفادها أنه لا ينفع المرء في وقت شدته وضيقه إلا عمله الصالح الذي كان قد عمله في وقت رخائه وفرجه، حيث يظهر من خلالها براعة التوحيدي في نسج القصة القصيرة، فيقول:

وقال ابن عُمَر: كان في بني إسرائيل ثلاثة خرجوا في وجهٍ، فأخذهم المطرُ، فدخلوا كهفاً، فوقع حجرٌ عظيم على باب الكهف، وبقوا في الظلمة وقالوا:

لا يُنجِينَا إلا ما عملناه في الرخاء. فقال أحدهم: إني كنتُ راعياً فأرحْتُ وحَلَبْتُ، وكان لي أبوانِ وأولادٌ وامرأةٌ فسقيتُ أوَّلاً الوالدين ثم الأولادَ، فجئتُ يوماً فوجدتُ أبويَّ قد ناما فلم أوقظهما لحُرْمَتِهما ولم أسْقِ الأولادَ، وبقيتُ قائماً إلى الصبح؛ فإن كنتَ يا ربِّ قبلتَ هذا مني فاجعل لنا فرجاً، فتحرَّك الحَجَرُ ودخل عليهم الضَّوء.

وقال الثاني: إني كنتُ صاحِب ضِيَاعٍ، فجاءني رجل بعدما مَتَعَ النهارُ، وكان لي أُجراءُ يحصدون الزرعَ، فاستأجرته، فلما تم عملُهم أعطيتُهم أجورهم، فلما بلغتُ إلى ذلك الرجل أعطيتُهُ وافياً كما أعطيتُ غيرَه، فغضبوا وقالوا: تعطيه مِثلَ ما أعطيتنا. فأخذتُ تلك الأُجرَةَ واشتريتُ

بها عِجَّوْلاً ونمى حتى كَثُرَ البَقرُ؛ فجاء صاحب الأُجرة يطلبُ فقلتُ: هذه البقرُ كُلُّها لكَ، فسلَّمتُها إليه، فإن كنت يا ربِّ قبلتَ مني هذا الوفاء ففرِّجْ عنا، فتحرك الحجرُ ودخل منه ضوْءٌ كثيرٌ.

وقال الثالث: كانت لي بنتُ عمٍ فراودتُها، فأبَتْ، حتى أعطيتُها مائة دينار فلما اردتُ ما أردتُ اضطرَبَتْ وارتعدتْ. فقلت لها: مالكِ؟ فقالت: إني أَخافُ الله. فتركتُها ورجعتُ عنها، إلهي فإن كنتَ قبِلتَ ذلك مني ففرِّج عنَّا. فتحرَّكَ الحجر وسقط عن باب الكهف وخرجوا منه يمشون.

وهكذا يمضي أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة على رسلِهِ صوفياً محدثاً وهو يختمه سائلاً ملحِفاً، حيث يقول، موجهاً كلامه إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس الذي كتب له المؤلِف هذا الكتاب وختم كتابه بِهِ:

أَيُّها الشيخ، سَلَمَكَ اللَّهُ بالصَّنعِ الجَمِيل، وحقق لكَ وفِيك وبكَ غاية المأمول... خَلِّصني أيها الرجُلُ من التَّكَفُّفِ، أنقذني من لُبْسِ الفقْر، اطلِقني من قَيْدِ الضَّرِّ، آشترني بالإحسان، اعْتَبِدْني بالشُّكْرِ، استعمل لِساني بفنون المَدْح، إكفني مؤونة الغداء والعَشاء. إلى متى الكُسيرةُ

اليابسة، والبُقَيْلَةُ الذَّاوية، والقميصُ المرقَّع، وباقِلي دَرْبِ الحاجب، وسَذابُ درب الرَّوَّاسين؟ إلى متى التأدُّمُ بالخبزِ والزيتون؟ قد والله بُحَّ الخَلْقُ، وتغيَّرَ الخُلقُ؛ اللَّهَ اللَّهَ في أمري؛ اجْبُرني فإنني مكسور، اسقني فإنني صَدٍ، اغثني فإنني ملهوف، شهرني فإني غُفل، حلِّني فإنني عاطل.

قد أذلَّني السَّفَرُ من بلـد إلى بلد، وخذلني الوقوفُ على بابٍ باب، ونكرَني العارفُ بي، وتباعَدَ عني القريبُ مِني.

أغرَّكَ مسكويه حين قال لك: قد لقيتُ أبا حَيَّان، وقد أخرجتُه مع صاحب البريد إلى قَرمِيسين؟!

والله ثم وحياتِكَ التي هي حياتي، ما انقلبت من ذلك بنفقةِ شهر، والله نَظَرَ لي بالعَوْد، فإن الأراجيفَ اتَّصلتْ، والأرضَ اقشعرَّتْ، والنفوسَ استوحشتْ، وتشبَّه كلُّ ثعلبٍ بأسد، وفَتَلَ كلُّ إنسان لعدوِّه حبلاً من مَسَد.

أيها الكريم ارْحم؛ والله ما يكفيني ما يصلُ إليَّ في كلِّ شهرٍ مِنْ هذا الرزق المقتَّر الذي يَرْجِع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهماً مع هذه المؤونة الغليظة، والسَّفِر الشاق، والأبواب المحجَّبة، والوجوه المقطَّبة والأيـدي المسمَّرة، والنفوسِ الضيِّقة، والأخلاقَ الدَّنيئة.

أيها السيد، أقصِرْ تأميلي أرْعَ ذِمامَ المِلحِ بيني وبَيْنَك، وتذكر العهد في صُحْبتي، طالب نفسك بما يقطعُ صُحبتي، دعني من التعليل الذي لا مردَّ له، والتسويف الذي لا آخرَ معه.

ذَكِّر الوزيرَ أمري، وكرِّرْ على أُذنِهِ ذِكري، وأفلِ عليه سُورَةً مِن شُكْري، وآبعثه على الإحسان إليَّ.

افتح عليه باباً يُغري الراغب في اصطناعِ المعروف لا يستغني عن المرغب، والفاعل للخير لا يستوحشُ من الباعث عليه.

أنفق جاهكَ فإنه بحمد الله عريض، وإذا جُدتَ بالمال فجُد أيضاً بالجاه فإنهما أخوان.

سَرِّحني رسولاً إلى صاحب البطائح أو إلى أبي السُؤْل الكُردِي، أو إلى غيره ممن هو في الجبال، هذا إن لم تُؤهلني برسالة إلى سعد المعالي بأطراف الشام، وإلى البصرة، فإني أبلغُ في تحمل ما أحمل، وأداءِ ما أُؤدِّي، وتزييف ما أُزيِّن، حداً أملكُ به الحَمْد، وأَعْرَفُ فيه بالنَّصيحة وأستوفي فيه الغاية دَعْ هذا، ودَعْ لي ألفَ درهم، فإني أتخذ رأس مال، وأُشارِكُ بقَّال المحلة في درب الحاجب، ولا أقلَّ مِنْ ذا،

تقدم إلى كسج البقال حتى يستعين بي لأبيع الدفاتر. قلتَ: الوزيرُ مشغول. فما أصنعُ به إذا فَرَغ، فالشاعرُ يقول:

«تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصَلَ الشُغْل»

قد والله نسيتُ صدرَ هذا البيت، وما بالُ غيري يُنوِّله ويُموِّله مع شُغله وأُحرَم أنا؟! أنا كما قال الشاعر:

وبرقٌ أضاءَ الأرضَ شرقاً ومغرباً
ومَوضِعُ رجلي منه أسودُ مُظْلمُ

والله ان الوزير مع أشغاله المتصلة، وأثقاله الباهظة، وفكره المفضوض (أي المتفرق غير المجتمع) ورأيه المشترك، لكريمٌ ماجد، ومفضلٌ محسن، يَرْعَى القليلَ من الحُرمة، ويُعطي الجزيل من النِّعمة، ويحافظ على اليسير من الذِّمام، ويتقبل مذاهبَ الكرام، ويتلذذُ بالثناء إذا سمع، ويتعرض للشُّكر من كل منتجع، ويزرع الخير، ويحصد الأجْرَ، ويواظبُ على كسب المجد، ويثابرُ على اجتلاب الحمد، وينخدع للسائل، ويتهلَّلُ في وَجْهِ الآمِل، ولا يتبوَّأ من الفضائل إلَّا في ذُراها، رحيم بكلِّ غادٍ ورائح، ولكلِّ صالحٍ وطالح.

وأنا الجار القديم، والعبدُ الشاكر، والصاحب المَخبور، ولكنَّك مُقبلٌ كالمعرض، ومُقَدِّمٌ كالمؤخِّر، ومُوقِدٌ

كالمخمِد، تُدْنيني إلى حَظِّي بِشمالك، وتَجْذِبُني عن نَيْله بيمينك، وتُغَذِّيني بوَعدٍ كالعسل، وتُعَشِّيني بيَأس كالحَنْظل...

نعم؛ عَتَبْتُ فأَوْجَعْتُ، وعَرَفْتَ البراءةَ فهلاَّ نفعْتَ؟ والله ما أدري ما أقول، إنْ شكرْتُكَ على ظاهِرِكَ الصحيح لَذِعْتُك لباطِنِكِ السقيم، وإن حَمِدْتُكَ على أُوَّلِكَ الجميل، أفسدْتُ لآخرك الذي ليس بجميل.

قد أطَلتُ، ولكن ما شُفِيتُ، ونَهِلتُ وعَلَلتُ، ولكن ما رَوِيت وآخر ما أقول: افعلْ ما ترى، واصنع ما تَسْتَحْسِن، وابلُغْ ما تهوى، فليس واللهِ مِنكَ بُدٌّ، ولا عَنْكَ غِنىً.

والصبرُ عليك أهونُ من الصبرِ عَنْك، لأنَّ الصبرَ عَنْكَ مقرونٌ باليَأسِ، والصَّبرَ عليكَ ربما يُؤدِّي إلى رفع هذا الوسواس، والسلامُ لأهلِ السلام.

بهذا الكلام يُنهي أبو حيان كتابه الامتاع والمؤانسة وهو كما ترى يظهر فيه سائلاً ملحفاً تصديقاً لما جاء مِنْ قولٍ على ظهر نسخة من كتاب الامتاع والمؤانسة بخط بعض أهل جزيرة صقلية كما ذكرنا سابقاً.

٤ ـ التعريف ببعض كتبه الأخرى

أ ـ المقابسات:

وهو عبارة عن مجموعة من الأسئلة وأجوبتها، دارت في مجلس، قُطبها أبو سليمان المنطقي السجستاني، وهي تتناول موضوعات فلسفية، ودينية، ونفسية، ولغوية، وصوفية، وترسم لفتات، ووثبات، ولكنها لا تدرس موضوعاً دراسة شاملة، أو تحيط بجوانبه، بل هي خطرات، ونقرات.

ولفظ المقابسات جمع مقابسة، والمقابسة اسم مفعول لفعل قابس الذي تفيد صيغته المشاركة، على نسق المحاورة، والمناظرة، وأصل الفعل الثلاثي قبس، ومعناه أخذ قبساً أي شعلة، ناراً، ومنه القابس طالب النار، يأخذها بطرف عود، والكتّاب يستعملون فعل اقتبس العلم، على أن العلم نور يُقتبس، أو لهب يؤخذ[1].

والذي ينظر في عدد المقابسات يجدها أنها لا تتجاوز

---

(١) المقابسات، ص ٢٩.

المائة والست. والمقابسات كتاب يغلب عليه النظر الفلسفي، على منوال المحاورة بسؤال وجواب مَنَح التأليف حيوية ليست متوافرة في سواه من الكتب التي تكلمت في هذا الموضوع، وهذا الكتاب يسجل مرحلة النضج، والاستشراق لدى أبي حيان.

وعند تصفح الكتاب نجد أن أبا حيان قد أطال في بعض مقابسات كالثانية، والثانية والستين، والمقابسة التسعين، والواحدة والتسعين، والمقابسة الأخيرة، كما أنه جعل بعض مقابساته قصيرة لا تتجاوز عدة سطور، كالمقابسة الواحدة والثمانين، والخامسة والسبعين، والحادية والثمانين التي لا تتعدى السطور الخمسة.

وكثيراً ما كان يبدأ المقابسة بقوله: سمعت أبا سليمان، أو قرأت، وأملى عليَّ، وحضرت أبا سليمان يوماً، وقيل لأبي سليمان، أو قال أبو سليمان، وسألت، وأشياء سمعناها عن... وسأل... وخرج أبو سليمان يوماً إلى الصحراء... ثم يبدأ بتسجيل الأسئلة والأجوبة، وقد يداخل غير واحد من جُلَّة علماء ذلك العصر في المحاورات. ويرى الدكتور علي شلق أن تلك المحاورات (تقف وحدها بكبرياء قبالة محاورات أفلاطون، وخاصة في المائدة (Banquet)،

ويرى أن مقابسات أبي حيان أدق فكراً، وأرحب أُفقاً) هذا مع اعترافه أن المتقدم له ميزة على المتأخر.

والكتاب يشير بوضوح من وراء سطوره أن أبا حيان اختار ما راق له من الأسئلة والأجوبة، وسكب ذلك في قالبه الخاص، ولربما نسب سؤالاً إلى سواه، وجواباً إلى غيره، بينما يكون هو الذي يسأل والذي يجيب.

ومما لا شك فيه أن أبا حيان قد أجرى تعديلاً، وتقديماً، وتأخيراً، ومحواً، وإثباتاً في مقابساته قبل أن يظهرها للناس، فقال في المقابسة الثانية: «ولم أزل أرقى، وأنفث، وأغزل وأنكث، حتى نظمتُ هذا الذي يمر بك في هذا المكان، على تنافر كبير، وتعاندٍ شديد، بين أول وآخر، وصدر وعجز، وسلامة ودخل، وإقباس واقتباس».

وإلى جانب الفلسفة يبدو الوعظ بيناً في الكتاب، والفقرة التالية ترسم ذلك: «واعلم أن الغرض كله من هذا الكتاب في جميع ما يثبت عن هؤلاء الشيوخ، إنما هو في إيقاظ النفس وتأييد العقل، وإصلاح السيرة، واعتياد الحسنة ومجانبة السيئة»[1].

وكما يبدو أن التوحيدي لم يتورع عن التزيد فيما كتب

---

(١) المقابسات، ص ١٨٠ مقابسة رقم ٤٣.

عن شيوخه، حسب ما رآه، وراق له، فالرجل مفكر كبير، وصاحب ذهن فلسفي، متميز برؤية جمالية، وثقافة فنية، فهو أبداً ينشد الجمال، ويتوخى الكمال في الصورة التي انتواها ورسمها فهو يقول في ذلك: «وإن كنت قد استنفذت الطاقة في تنقيتها، وتوخي الحق فيها، بزيادة يسيرة لا تصح إلا بها، أو نقص خفي لا يبالى به»[1].

فهو متشائم في معظم مراحل كتابه، شأنه في سواه، وإن أقسى صور اليأس لديه تبدو في التعبير التالي: «الإنسان لا يبقى، وإذا لم يبقَ فأية فائدة فيما يبقى له؟»[2].

وإلى جانب ذلك اليأس تبرز السخرية من كل جهد، وتعب، أو أية صلة بالسابق من اللاحق!. وقد يجد حب الحياة في نفسه، أن ينصرف عن التفكير في اللاجدوى، والعفاء، فيلجأ إلى الصيرورة بالتحول، أو التناسخ.

وهكذا سجل لنا أبو حيان مرحلة من مراحله العقلية، وكان عقلانياً في كل ما كتب، فلو أحصينا تكرار لفظ العقل في مقابساته لبان لنا أن الرجل مهووس بالعقل، وهذا الذي حمل بعض الذين كتبوا عنه أن يحشروه في صف المعتزلة،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٢/٣١.

(٢) مقابسة ٣١، ص ١٥١.

كما حشره البعض الآخر في جماعة اخوان الصفاء، ومن الواضح ان سنه كانت في حدود الخمسين يوم كتب المقابسات، فهو يقول في ذلك: «وماذا يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة قد أضاع أكثرها، وقصر في باقيها؟».

إن كلمة «الالتفات» تشير إلى أن التوحيدي قد تجاوز الخمسين، لأن الملتفت ينظر وراءه، والمستشرف من فوق ينظر أمامه. وأما قوله: «أضاع أكثرها» فهو قول رجل نظر إلى دنياه، نظرة من لا يثق، أو يرجو، وتعبيره: «قصَّر في باقيها» ينبىء عن علم عالمٍ وقف على قمة المعرفة وأدرك أنه وهو في ذلك المطل إنما يتخطى على وحدة الواقع بين سدود وحدود، وظلمات بعضها، ولهذا عمد إلى إحراق كتبه فخسرت بذلك المكتبة العربية قسماً كبيراً من عطائه الفني الفريد[1].

ب ـ موضوعات المقابسات:

في المقدمة بعد البسملة، يبتهل أبو حيَّان إلى الله عز وجل، أن يهبه ما يرجوه، ويملأ قلبه بنور العقل، ويذكر ما قدمه مشايخ الفكر في مقابساته من خير فكري وشعاع عقلي.

---

(١) المقابسات، ص ٣٢/٣٣.

ثم يأخذ منذ المقابسة الأولى برسم الخطوط العقلية للأخلاق بشرائط منطقية، وقوانين نفسية، وفي الثانية يتحدث عن الطب، والنجوم، والنحو والفقه، والشعر والبلاغة، والعلوم، والفلك، والفن، والخلق.

وفي الثالثة يتكلم عن الأخلاق وتهذيبها وتطهيرها، وفي الرابعة يتناول أمر الناموس الإلهي، فالجماليات، فالزمان والمكان، والنقد. وفي الخامسة يبحث بأي معنى يكون زمان أشرف من زمان، ومكان أفضل من مكان، وإنسان أشرف من إنسان، وفي السادسة يحدثنا عن معنى قول بعض الحكماء، وفي السابعة يجري الكلام عن السِر وطيه والبوح به. وفي الثامنة يتكلم عن الموت والحياة. وفي التاسعة يتساءل لماذا كل صاحب علم يرى أن علمه أشرف من علم سواه. وفي العاشرة يركز على العقل، ويشير إشارات صوفية أفلاطونية، ويختمها بنظرة فلسفية.

ويتكلم في الحادية عشرة عن الحالة ويفلسف، وينهيها بنسق تعبيري أدبي.

وفي الثانية عشرة يتحدث عن الفقه، والتقليد، وفي الثالثة عشرة عن الزمان والدهر، وفي الرابعة عشر يورد ما يتصل بعلم الكلام والفلسفة ويصنع مثل ذلك في الخامسة

عشرة، وفي الثامنة عشرة يتحدث عن العقل والنفس، وإنهما شيء واحد.

وفي التاسعة عشرة عن أن الفن تقليد، وعن الموسيقى، وحلاوة السجع، ودقة المعنى، وفي المقابسة العشرين يتكلم عن النفس وكيف أنها تجهل أمرها قبل الموت، جهلها بعد الموت، ثم يسترسل في مجال الحكمة، والذكر، والحس، والعقل. وفي الواحد والعشرين يتحدث عن أن فضيحة حسيب لا أدب له، أشنع من فضيحة أديب لا حسب له. وفي المقابسة الواحدة والثلاثين عن التحول والتنقل (التقمص).

وفي الثالثة والثلاثين عن الحركة والسكون، وأيهما أقدم؟ وإن العالم دائري، والحركة الكونية شوق، وهنا يمزج العلم، بالصوفية، بالهندسة، بالشعر، وفي الرابعة والثلاثين يتحدث عن ضرب من الفكر الوجودي، والوجود بالحس والعقل، وفي الخامسة والثلاثين يسخر، ويتقدم بكلام بسيكولوجي.

وفي السادسة والثلاثين أفلاطونية، وإن الله مصدر الفيض، وفي الثامنة والثلاثين يتكلم عن الخير والشر إذ هما عقليَّان. وفي الثالثة والاربعين يتكلم عن الطب والتنجيم وأنهما متلازمان، ويختمها ببيان الغرض من المقابسات.

وفي الرابعة والأربعين يتكلم عن الإمكان، وجانب من علم الكلام، ويسترسل على نسق رائع من التفلسف والجدلية، والفقه، وبذا تكون المقابسة من أروع فلذات الكتاب، ولا تقل المقابسة السادسة والأربعون عنها في العمق الفلسفي والجمالية، ولكنه يقف في جريه موقف تشاؤم، وعبوس.

وفي التاسعة والأربعين كلام على الحركة، وفي الخمسين عن الكهانة، والنبوة، والتنجيم وهي من الأهمية بمكان من ذهنية العالم، وشجاعة الحُرِّ.

وفي الخامسة والخمسين يتحدث عن البديهة، والرويَّة، وفي السادسة والخمسين عن الإضافة، وفي السابعة والخمسين عن الخطوط، وفي الثامنة والخمسين عن العقل، والطبيعة، والموت، وفي التاسعة والخمسين عن الحس، والنفس الغضبية. وفي الستين عن النثر والنظم.

وفي الثانية والستين عن الثمرة والشجرة، والعقل والطبيعة، وأن النفس عقل بالاستنارة والعقل نفس بعد الفكر، ويعرّف الفلسفة، ويذكّر بقولة «ڤاليري» عن أن النية فعل، والحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيات)، وهي مقابسة فاخرة، مزج فيها الأخلاق، بالتربية، بالسيكولوجيا،

بعلم الكلام والأفلاطونية، والرؤيا، والصوفية، وأن الإنسان في حد ذاته كون، وعن تفسير القرآن، والاختيار.

وفي الثالثة والستين يتكلم على التوحيد، والظن، والشرع، والترجمة، وفي الرابعة والستين على العميان والفيل، وفي الخامسة والستين فكر مقارن، وشعوبية، وبسيكولوجيا، وتفضيل الشرع على النظم.

وفي السادسة والستين على العقل والفضيلة، وسياسة السلطان، والمعرفة بالحدس، والاختيار، والخرافة.

وفي السابعة والستين عن اللون، والمعرفة بالرائحة، والعلم والفلسفة.

وفي الثامنة والستين عن الحرارة والبرودة، والهيولى، والصورة، ومنزلة الكواكب من الشمس، وفي التاسعة والستين عن الرُّقي، والنفس التي تضيء الجسد، والفعل غير الفاعل، والطبيعة والنفس، والخير والشر متلازمان، والماء والسكون.

وفي السبعين يفرق بين المعرفة والعلم، والرطوبة واليبوسة، والنفس والطبيعة أو العقل والإرادة، وفي الحادية والسبعين يتكلم عن الضحك، ويذكّر بقول الجاحظ في

البخلاء عن الضحك، ومدى برغسون عن الكلام فيه، ويبلغ التوحيدي بعمقه مبلغ برغسون قبل مئات الأعوام.

وفي الثالثة والسبعين إعادة كلام على الدهر، والزمان، والمكان. وفي الرابعة والسبعين عن الوحدة والنقطة. وفي الخامسة والسبعين عن الفعل، والعمل، وفي السادسة والسبعين عن النفس والجسم، وفي السابعة والسبعين عن المحبة والغلبة والاسطقسات، ثم يختمها باليأس من الصديق والصداقة.

وفي المقابسة الثمانين فعل وانفعال، وما هو بالقوة، وما هو بالفعل، وفي الحادية والثمانين وهي أقصر المقابسات يتكلم على الخير، وفي الثانية والثمانين عن الواحد العددي، والواحد هو العقل والنفس، والوجود المحض.

وفي الرابعة والثمانين عن الخلاء (عدم، وجود)، وفي الخامسة والثمانين عن الكل الكلي، وفي السادسة والثمانين عن الجوهر، وفي السابعة والثمانين عن الموجود، وفي الثامنة والثمانين عن البلاغة، وبلاغة العرب، والبلاغة بشكل عام.

وفي الثامنة والثمانين يتناول الفرح والحزن، وأن الحزن أصل، والفرح طارىء، وهذا الرأي قال به أرثر

شوبنهور في كتابه: «العالم» كإرادة وفكرة، ويجري شعراً في سياق المقابسة، والمقابسة التسعون تتحدث عن الجمال وكماله في الجلال، ووزن النفس، وشؤون الأخلاق، والصوفية، والفضائل.

وفي الحادية والتسعين يذكر سوء حاله عندما كتب المقابسات وفيها يتكلم على حد الكلام والشعر، والغناء، والإيقاع، واللحن، والنغم، والطنين، والجدل، والمحال، والكون، والفساد، والجمع والانفراد، والباطل، والخير والشر، والذكر، والذهن، والذكاء، والرأي، والشك، والريب، واليقين، والعلم، والتمييز، والعزم، والمعرفة، والجزم، والوهم والتوهم، والتصور، والفكر، والحفظ، والحس، والإدراك، والإسطقس، والزمان والمكان، والجرم، والملازقة، والحال، والرطوبة، واليبس، والبرودة، والحرارة، والمؤلَّف، والرويَّة، والاختيار، والمدخل، والمنطق، والصناعة، والصدق، والنوم، واليقظة، والحياة، والشجاعة، والفرح، والتجول، والسمة، والحسود، والحقد، والغضب، والخرق، والعُجْب، والرضى، والاستطاعة، والشهوة، والمحبوب، والوقت، والبصر، والحد، والخاصة، والإنسان، والواجب، والممكن، والممتنع، والمطلق، والكيفية، والكمية، والصدق،

والكذب، والحق، والعنصر، والهيولى، والجوهر، والأزلي، والقائم بذاته، والعلة الأولى، والسماء، والمحبة، والإرادة، واللذة، والفرح، والكل، والحزن.

المقابسة الثانية والتسعون تحدث فيها عن أن الفضيلة قليلة، وفي الثالثة والتسعين تكلم عن حدوث العالم، وفي الرابعة والتسعين عن النفس والجوهر، وفي الخامسة والتسعين عن الحواس والعقول، وفي السادسة والتسعين متفرقات.

وفي السابعة والتسعين عن النفس والعقل، وإن للعقل ثلاث جهات، والعلم علمان، والهيولى، والذكر، والعقل الأول، والعقل النفساني، والرائحة والغذاء، والطبائع الأربع، ومزاج البدن وتحوله، والنفس وأحوالها، والنار، ومكان النفس ووصفها، والنور، والهواء، والكلام البليغ، وصعوبة فهم النفس.

وفي المقابسة الثامنة والتسعين يتكلم عن المعاد، وفي التاسعة والتسعين عن الكون والفساد، وفي المقابسة المائة يتكلم على مقدار الإنسان، وفي الواحدة بعد المائة عن الحلم، وفي الثانية بعد المائة عن اليقظة والمنام، وفي الثالثة بعد المائة عن العلل والحس والعقل، وفي الرابعة بعد المائة

عن المحرَّك والمسكَّن، وفي الخامسة بعد المائة عن النوم.

أما السادسة بعد المائة فيتكلم فيها عن الصديق، والعشق، وان القيم لا تعرَّف، والمحبة، والمعرفة، والعلم، والتوحيد، والظاهر، والباطن، وشكول العقول، والهوى، والحب، والعشق، ومقارنة اللغات، وحقيقة العقل، والروح، والرأي، والسعادة، والجود، والمن، والوعد، والوعيد، والتفلسف، والعالَم والدنيا، والإنسان، والشريعة، والفلسفة، والموجود، والحق، ويختمها بالصلاة والسلام على خير الأنام.

لم يسرف أبو حيان بالتكرار، والاستطراد كالجاحظ، ولكنه ربما عاود الكلام على موضوع ما، ولكن بشكل يختلف عن سابقه، أو بمعنى يضاف جديد، تنجلي لنا المقابسات عن مستوى فكري رائع، وبحث وثَّاب نادر، وطريقة منهجيّة ذات خصوصية[1].

ج ـ كتاب الهوامل والشوامل، أو الشوامل والهوامل:

الهوامل: جمع هامل وهو المنساب على غير هدى أو انضباط طريق، والشوامل جمع شامل وهو ما أحاط، فوعى،

---

(١) المقابسات، ص ٣٨/٣٥.

ويقصد بالتسمية القضايا الفكرية المتوزعة بدون تحديد، وشمولها النفس التي تقلق، وتهجس وتداور.

الكتاب يجري بأسئلة يلقيها أبو حيان على ابن مسكويه المفكر الأخلاقي الكبير الذي أحلَّه التوحيدي في الهوامل والشوامل محل أبي سليمان المنطقي في المقابسات، إلا أن التوحيدي كان يجلُّ أبا سليمان، ويخشع له، بينما لم ينجُ مسكويه كما يخاطبه، من ذمِّه أحياناً، شأن الكثيرين ممن عايشهم وسلقهم بلسانه الحاد.

والكتاب يتناول أموراً نفسية، ووجدانية، وعلمية، ومنطقية، وأخلاقية، ولغوية، وطبية[1].

د ـ كتاب الصداقة والصديق:

عرض قسماً منه على قطب اخوان الصفاء زيد بن رفاعة، فنقله إلى ابن سعدان الوزير، قبل أن يُكلف هذا بالوزارة.

الكتاب ذو موضوع واحد، وليس وثبات، ولفتات كما في المقابسات أو ليالٍ كما في الإمتاع والمؤانسة، ولكنه لم يرسمه أبواباً، وأقساماً منسقة، بل جاء فلذاً فلذاً، وعبارات عبارات[2].

---

(١) المقابسات، ص ١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢/١٣.

هـ ـ كتاب مثالب الوزيرين:

كتاب يدور حول ذمّ ابن العميد، الأديب الكبير الذي مدحه المتنبي، والمتميِّز بالاسلوب الأنيق في النثر الذي يشكل مرحلة من مراحل تطور النثر في الأدب العربي، وكان يلقب بذي الكفايتين: السيف والقلم، وابن العميد، أبو الفضل كان وزير البويهيين، وقطب أرّجان، قصده أبو حيَّان، لكنه لم يتناغم معه.

والوزير الثاني هو الصاحب بن عباد، الوزير الثاني للبويهيين، كان تبعاً لابن العميد، في العلم والسياسة والطريقة كتلميذ لأستاذه، وهو يعد من كبار المعتزلة عمل عنده التوحيدي نساخاً، وقلاه، وابتعد عنه، وخصص له القسم الأكبر من القدح والذم في هذا الكتاب، واشتد فيه.

يسمي ياقوت هذا الكتاب: ثلب الوزيرين،أو أخلاق الوزيرين[1].

و ـ كتاب البصائر والذخائر:

جماع ألوان كثيرة من الأفكار، والخواطر، تدور حول التصوف، واللغة، والتاريخ، والشعر، والفكاهة، والمجون، والدعارة، جاءت منثورة دون وحدة موضوع، كما في سوابق

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣.

كتبه ما عدا «الصداقة والصديق». يقول أبو حيان: إنه أودعه ما سمعه، ورواه على مدّ خمسة عشر عاماً، وهو يبدو كثير الاستطراد في هذا الكتاب تأثُّراً بالجاحظ، ومدعياً مثله إنما يحاول دفع الملل عن القارىء[1].

ز ـ المحاضرات:

أو المحاضرات والمناظرات، أو محاضرات العلماء كتاب أعدّه ونسَّقه أبو حيان للوزير أبي القاسم المعمر بن الحسين المدلجيّ ويسميه أبو حيَّان الدلجيّ، على عادته في تحريف بعض الأسماء كمسكويه بدلاً من ابن مسكويه، وقس على هذا.

والكتاب ليس تاماً، والذي بقي يتناول أخباراً أدبية، ووصفاً لمجالس العلماء تلك التي كثرت في القرن العباسي الرابع الهجري (العاشر ميلادي) والتي بدت مفخرة لحضارة ذلك العصر، وقام أبو حيان بتسجيل ما كان يدور في المجالس من علم وأدب، ومنطق، وفلسفة ومختلف شؤون المعرفة، شأنه في ذلك كما في سائر كتبه.

ـ كتاب تقريظ الجاحظ:

كان الجاحظ دائرة معارف عصره، كما يصفه (أحمد

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣.

أمين) وكان إلى جانب هذه المكانة عقلانياً، قال عنه السندوبي تأييداً لسواه إن كتبه تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، كان الجاحظ معتزلياً صاحب فرقة الجاحظية.

إن إعجاب أبي حيان بالرجل قاده إلى ترسُّم خطاه في مجمل سيره، وخاصة في إنشائه المنساب، المموسق، ذي الوقع اللطيف. الذي لم يجنح إلى الزخرف، والتصنع، بينما نجد إنشاء أبي حيان على جانب من التصنّع. والكتاب يبوح بإعجاب التوحيدي بالجاحظ، فيثني على كتبه، ويذكرها في معظم مؤلفاته وخاصة في البصائر والذخائر. فهو يقول عنه: «وكتبه هي الدر النثير، واللؤلؤ المطير، وكلامه الخمر الصَّرف، والسِّحر الحلال»[1].

ويذكر أبو حيان أن ثابت بن قَرَّة، المترجم، المتفلسف، الصابئي، قال: «إن الجاحظ من مفاخر الأمة العربية» فزهى التوحيدي بذلك، ونشط عندما استكتبه «ابن سعدان» كتاب الحيوان للجاحظ. وكان التوحيدي يقلد الجاحظ في الاستطراد احياناً، والتوائب، والاكثار من الدعاء، وربما سمج بموالاة الأسجاع، وهو مثله في مزج الأدب بالفسلفة إلا أن أبا حيان زاد فلسفة في كتبه عن الجاحظ الأديب وكلاهما ممن عنوا بالثقافة الموسوعية.

---

(١) البصائر والذخائر، ص ٥.

ك ـ رسالة العلوم:

وهي رسالة دعا فيها إلى تعظيم شأن العلم، الذي شمل الفقه، والسنة، والأقيسة، وعلم الكلام، والنحو، واللغة، والمنطق، والنجوم، والحساب، والهندسة، والبلاغة والتصوف.

ل ـ الزّلفة:

ما بقي منه يدور حول التصوف، والزهد، وأمور الدنيا الفانية، واسلوبه يشبه ما كان يدور في المقابسات من حوار، يتناول كلام الشاهدين في مجلس أبي سليمان المنطقي.

م ـ الإشارات الإلهية:

وهو جزءان، الجزء الأول مع قسم من الجزء الثاني نشره الدكتور علي شلق في بيروت مع تحقيق وشروح الدكتورة «وداد القاضي» وهو يدور حول الزهد، والتصوف، والابتهال، والدعوات، وهو يخلو من الشكوى، والحقد، والذّمّ، نسجه مسجوعاً، موقعاً.

يرجح أنه كتبه في أخريات أيامه: حيث يقول:

«أنا نطقت بهذه الألفاظ بعد سبعين سنة، وقد تحطمت قناتي، وتكمشت شعراتي، وتفلّلت صفاتي، واضمحلت

صفاتي، وبليت لحمتي وسداتي، وفقدت شهواتي ولذاتي، ومُنيت بموت احبَّتي ولذاتي».

ولعل ذلك بعد موت جاريته بثورة العيارين ببغداد، ونهب منزله[1].

هذا وقد ضاع كثير من تراث أبي حيان شأن سواه الذين نُكبوا، فجاء ما خلّفوه أقل مما أبدعوه، يزاد على ذلك أن الرجل أحرق كتبه في أخريات أيامه، والذي بين أيدينا مما نجا، وشاع قبل الإحراق يشير إلى فضله وعلمه وسعة ثقافته، وعظمة قلمه.

(١) المقابسات، ص ١٣/١٤.

٥ ـ بعض النماذج من كتاب الإمتاع والمؤانسة

رأينا أن كتاب الإمتاع والمؤانسة هو عبارة عن مجموعة من الأمالي والمجالس، ألقيت في أربعين ليلة، ألقاها أبو حيان على مسامع الوزير ابن سعدان في بغداد؛ حيث عالج فيها الكثير من الموضوعات من أخبار ادبية وشعر ونثر، ولغة، وفلسفة، ومنطق، وطبيعة، وإلهيات، وتفسير، وحديث، وبلاغة، وسياسة؛ وحيوان، وطعام وشراب، ومجون، وغناء، وموسيقى، وتاريخ، وتحليل لشخصيات العصر، من ساسة وعلماء وفلاسفة وادباء، كما تعرض للحياة الإجتماعية المعاصرة له بالدرس والعرض والتحليل؛ وكان أبو حيان يختم كل ليلة من ليالي المسامرات بملحة يطلبها مِنْهُ الوزير ويسميها «ملحة الوداع» وهذه الملحة تكون ـ عادة ـ نادرة لطيفة أو أبياتاً رقيقة.

وها هو يحدثنا عن **أول ليلة** قضاها في مسامرة الوزير قائلاً.

وصلتُ أيها الشيخ[1] ـ أطال الله حياتك ـ أول ليلة إلى مجلس الوزير ـ اعزَّ الله نصرَه، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أزرَهُ ـ فأمرني بالجلوس، وبسط لي وجهه الذي ما آعتراه منذ خُلِقَ العُبوس؛ وَلَطَّفَ كلاَمه الذي ما تبدَّل منذ كان لا في الهزل ولا في الجِدِّ، ولا في الغضب ولا في الرضا. ثم قال بلسانه الذليق[2] ولفظه الأنيق: قد سألتُ عنك مرَّاتٍ شيخَنا أبا الوفاء، فذكر أنك مراع لأمر البيمارستان من جهته، وأنا أَرْبَأُ بك عن ذلك، ولعلي أعرِّضك لشيء أَنْبَهَ من هذا وأجدى، ولذلك فقد تاقتْ نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرَّفَ منك أشياءَ كثيرةً مختلفة تَرَدَّدُ في نفسي على مَرِّ الزمان، لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكني أنثُرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يَسنح ويَعرِض، فأجبني عن ذلك كلِّه باسترسال وسكون بال؛ بملء فيك، وجَمِّ خاطرِك، وحاضرِ عِلمِك؛ ودَعْ عنك تفنُّنَ البَغداديِّين[3] مع عفوِ لفظك، وزائدِ رأيك، ورِيْحِ[4] ذِهنِك؛ ولا تجبُنْ جُبْنَ

---

(١) يقصد أبا الوفاء المهندس.

(٢) اللسان الذليق: الحاد البليغ.

(٣) يريد بذلك استطرادهم في الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن.

(٤) أي فضلته.

الضُّعفاء، ولا تتأطَّرّ[1] تأطُّرَ الأغبياء؛ وأجزم إذا قلت، وبالغ إذا وصفت؛ وأصدق إذا أسندت، وافصل إذا حكمت، إلا إذا عَرَض لك ما يوجب توقفاً أو تهادِياً[2].

وبعد أن يتم التعارف بين الوزير وأبي حيان حيث يأذن الوزير له بمخاطبته بكاف المخاطبة، وتاء المواجهة؛ قائلاً له إن الله تعالى ـ على علو شأنه، وبسطةِ مُلكه، وقدرته على جميع خلقه ـ يواجه بالتاء والكاف؛ فكيف بالأحرى به فيُثني أبو حيان عليه لتواضعه مع نباهة شأنه وعلو همته؛ وهو يرى أن التواضع سجية أهل البصيرة في الدنيا والدين. ويقدم بعض الأمثلة عن تواضع الأنبياء والخلفاء والعظماء. وينتقل بعد ذلك إلى فضل الحديث الذي يصقل النفوس ويجلو الصدأ عنها، ويعيدها قابلة لودائع الخير. كما يقوم بشرح بعض الكلمات والفرق بين معانيها كالزمان والدهر؛ حيث يقول: ومثال ما يَقْوُمُ بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر التي بَعُدَ العهدُ بمبادئها، وسيمتد العهد جداً إلى نهاياتها؛ وأما ما قَدُمَ بالدهر، فكالعقل والنفس والطبيعة؛ وينتقل بعد ذلك إلى نعت العتيق والخَلَق، حيث يقول: إن

---

(١) التأطر: التحبس والتثني، شبه به وقوف الغبي وتردده في جواب ما يسأل عنه.

(٢) التهادي: المشي الرفيق في تمايل.

العتيق يقال على وجهين: فأحدُهما يُشار به إلى الكرم والحُسن والعظمة، وهذا موجودٌ في قول العرب: «البيت العتيق»؛ والآخرُ يشار به إلى قِدَمٍ من الزمان مجهول. فأما قولهم: «عبد عتيق» فهو داخل في المعنى الأول، لأنَّهُ أُكرِمَ بالعتق، وٱرتفعَ عن العبودية، فهو كريم. وكذلك «وجه عتيق» لأنه أعتقته الطبيعةُ من الدَّمامة والقبح. وكذلك «فرس عتيق».

وأما قولهم: «هذا شيء خَلَقَ» فهو مضمَّن معنيين: احدُهما يشار به إلى أن مادته بالية؛ والآخر أن نهاية زمانه قريبة... «العالَمُ عتيق ولكن ليس بقديم» أي لو كان قديماً لكان لا أوّل له، ولمَّا كان عتيقاً كان له أول، ومن أجل هذا الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم.

وهكذا تمضي المسامرة بين الرجلين في هذه الليلة عن الحديث والمحادثة وفضلهما بين الإخوان في الليالي الزُّهر، إلى أن يصل ـ كعادته في آخر كل ليلة ـ إلى ملحة الوداع حيث يقول له الوزيرُ: هات مُلحة الوداع حتى نفترق عنها، ثم نأخذ ليلة أخرى في شجون الحديث. فيروي له أبو حيان هذه الملحة قائلاً: حدثنا ابن سيف الكاتب الراوية، قال: رأيت جحظة[1] قد دعا بنَّاءً ليبني له حائطاً، فحضر،

(١) وهو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك الشاعر =

فلما أمسى اقتضى البنَّاءُ الأجرة، فتماكسا[1]، وذلك أن الرجل طلب عشرين درهماً؛ فقال جحظة: إنما عملتَ يا هذا نصفَ يوم وتطلب عشرين درهماً؟ قال: أنت لا تدري، إني قد بنيت لك حائطاً يبقى مائة سنة؛ فبينما هما كذلك وَجَبَ الحائطُ وسقط؛ فقال جحظة: هذا عملك الحَسَن؟ قال: فأردتَ أن يبقى ألف سنة؟ قال: لا، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفِيَ أجرتك.

وفي الليلة الثانية، يسأله الوزير فيها عن أصحابه وعن درجة كل منهم في العلم والحكمة، مثل ابن زرعة[2] وابن الخمار[3] وابن السمح[4]

= المعروف، كان من ظرفاء عصره وكان صاحب فنون ونوادر، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة، وتوفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة بواسط، ودفن ببغداد.

(١) أي تشاحا في الإجرة؛ ماكسه في البيع ونحوه: إذا شاحه فيه واستحطه الثمن واستنقصه إياه.

(٢) ابن زرعة، هو أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة عالم نصراني من علماء بغداد برز في المنطق والفلسفة، ونقل عدة مصنفات إلى العربية، وتوفي كما روى القفطي سنة ٣٩٨.

(٣) ابن الخمار، هو أبو الخير الحسن بن سوار، كان كذلك نصرانياً طبيباً فيلسوفاً نقل كتباً كثيرة من السريانية إلى العربية.

(٤) ابن السمح، هو أبو علي بن السمح من مناطقة بغداد؛ مات سنة ٤١٨ هـ.

والقومسي[1] ومسكويه[2] ونظيف[3] ويحيى بن عدي[4] وعيسى بن علي[5].

فيصف أبو حيان له كل واحد منهم، حتى يشرف الليل على الانتهاء، فيقول الوزير: هذا في الحُسن نهاية، وقد اكتهل الليل، وهذا يحتاج إلى بدء زمان، وتفريغ قلب، وإصغاءٍ جديد. هات خاتمة المجلس. فيجيبه أبو حيان قائلاً: قرأنا يوم الجمعة على أبي عبيد الله المرزباني لعبد الله بن مُصْعَب:

---

(١) القومسي، هو أبو بكر القومسي المتفلسف. قال عنه أبو حيان: إنه كتب لنصر الدولة عامين.

(٢) مسكويه، هو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه الخازن، كان عارفاً بالفلسفة، ألف كتاب تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم، وكان قيماً على خزانة كتب ابن العميد ثم قيماً على خزانة كتب عضد الدولة ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم عنده شأنه ومات سنة ٤٢١ هـ.

(٣) نظيف، هو القس نظيف النفس الرومي، كان عالماً جيد النقل من اليوناني إل العربي وكان من أفاضل الأطباء، وعينه عضد الدولة في البيمارستان الذي أنشأه ببغداد.

(٤) يحيى بن عدي أبو زكريا، كان نصرانياً منطقياً، أخذ الفلسفة عن أبي نصر الفارابي، وبشر بن متى؛ وله مؤلفات كثيرة، مات سنة ٣٦٤ هـ.

(٥) عيسى بن علي، هو أبو القاسم عيسى بن الوزير الكبير علي بن عيسى الجراح، كان عيسى عالماً فاضلاً، قرأ المنطق على يحيى بن عدي، كما درس الفقه والأدب على علماء عصره، وعمل في ديوان الرسائل؛ ومات ببغداد سنة ٣٩١. وقد نقل عنه أبو حيان كثيراً من أقواله في الحكمة في كتابه المقابسات.

إذا استمتعتُ منك بلحظ طرفي
حَي نصفي ومات عليك نصفي
تلذَّذُ مقلتي ويذوبُ جِسمي
وعَيشي مِنْكَ مقرونٌ بحتفي
فلو ابصرتني والليلُ داجٍ
وخدي قد تَوسَّطَ بطن كفي
ودمعي يستهلّ من المآقي
إذاً لرأيتَ ما بي فوق وَصْفِي

وفي الليلة الثالثة، يطلب إليه الوزير أن يحدثه حديث الخُراساني، قائلاً: حدثني أبو الوفاء عنك حديثَ الخُراساني، فأريد أن اسمعه منك. فقلتُ، كنتُ قائماً عشية على زنبرية[1] الجسر في الجانب الشرقي والحاج يدخلون، وجمالُهم قد سدت عرض الجسر ـ انتظر جوازَها وخفةَ الطريق منها، فرأيت شيخاً من أهل خُراسان ذكر لي أنه من أهل سنجان[2] واقفاً خلف الجمال يسوقها، ويحفظ الرحال التي عليها، حتى نظر إلى الجانب الغربي فرأى الجذع عليه ابنُ بقيّة ـ وكان وزيراً صلبه الملك لذنوب كانت له ـ فقال:

---

(١) في الأصل زبيرة والزنبريتان هما السفينتان اللتان في الجسر في الجانب الشرقي من بغداد يعبر عليهما السالكون.

(٢) قرية بمرو.

لا إله إلا الله، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلَّ المفكر في عِبَرها وغِيَـرِها، عضد الدولة تحت الأرض وعدوُّه فوق الأرض!

قال الوزير: هكذا حدثني أبو الوفاء، ولذلك استأذنتُ في دفنه، وكان كلام هذا الشيخ سبباً في ذلك.

ثم يسأله الوزير عن عددٍ من الرجال فيجيبه عنهم. وتنتهي هذه الليلة أيضاً بأبيات من الشعر.

وفي الليلة الرابعة، يسأله الوزير قائلاً: كيف رضاك عن أبي الوفاء؟ فيمدحه أبو حيان ويثني عليه، ثم يعود الوزير فيسأله عن نصرٍ غُلام خواشاذه[1] وعن ابن عبَّاد وأخلاقه ومذهبه وعادته وعن علمه وبلاغته، ثم عن بلاغته من بلاغة ابن العميد، وعن طريقته من طريقة ابن يوسفَ والصابي. حيث ينـال أبو حيـان من مـروءة الـرجلين ومن علمهمـا وأخلاقهما وفضلهما. وتنتهي هذه الليلة دون ملحة الوداع كما عودنا أبو حيان في لياليه الماضية.

وتمضي الليلة **الخامسة** على نسق الليلة السابقة وهي تتمة لما كانا قد بـدآ به في الليلة السالفة.

---

(١) هو أبو نصر خواشاذة كان فارسياً من كبار رجال شرف الدولة البويهي وكان سفيراً في الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة.

وفي الليلة السادسة يسأل الوزيرُ أبا حيان قائلاً: أتفضِّل العرب على العجم أم العجم على العرب؟

فيجيب: الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند، وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب ان يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لها، وتفاريقِ ما عندها. قال الوزير: إنما أريد بهذا الفُرْسَ. فقال أبو حيان: قبل أن احكم بشيء من تلقاء نفسي، أروي كلاماً لابنِ المقفع، وهو أصيلٌ في الفرس عريق في العجم، مفضَّل بين أهل الفضل... حيث طرح علينا السؤال التالي: أيَّ الامم أعقل؟ فظننا أنه يريد الفرس، فقلنا: فارسُ أعقل الأمم، نقصد مُقاربته، ونتوخى مصانعته. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها،.. فقلنا الروم. فقال: ليس ذلك عندهم، بل لهم أبدانٌ وثيقة وهم أصحاب بناء وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما.

قلنا: فالصين. قال: اصحاب اثاث وصنعة، لا فكر لها ولا روية. قلنا: فالتُرك. قال: سباع للهراش. قلنا: فالهند. قال: اصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة. قلنا فالزنج. قال: بهائم هاملة. فرددنا الأمر إليه. قال العرب. فتلاحظنا وهمس بعضنا إلى بعض، فغاظه ذلك منَّا، وامتقع

لونه، ثم قال: كأنكم تظنون فيَّ مقاربتكم، فوالله لوددتُ أن الامر ليس لكم ولا فيكم ولكن كرهت إن فاتني الامرُ ان يفوتني الصواب ولكن لا ادعكم حتى ابين لكم لِمَ قلتُ ذلك... وبعد ما فضَّل ابن المقفع العرب على ما سواهم من الأمم. يعقِّب أبو حيان على ذلك قائلاً: ... فلكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسنُ ومَساوٍ، ولكل طائفةٍ من الناس في صناعتها وحَلِّها وعقدها كمال وتقصير، وهـذا يقضي بأنَّ الخيرات والفضائل والشرورَ والنقائص مفاضة على جميع الخَلق، مفضوضةٌ بين كلِّهم.

وهو يعجب كثيراً ممن له فضل واسع، وعلم جامع؛ وعقل سديد، وادب كثير، مثل الجيهاني[1] في كتابه وهو يسبُّ العرب، ويتناول اعراضها ويحط من أقدارها، ويرد عليه قوله... كما تنتهي هذه الليلة من دون ملحة الوداع.

---

(١) الجيهاني: نسبة إلى جيهان مدينة بخراسان. وقد شهر بهذه النسبة اثنان: أحدهما أبو عبد الله أحمد بن نصر وزير السامانية ببخارى، كان أديباً فاضلاً له من الكتب كتاب آبين نامه وكتب أخرى؛ وجيهاني آخر اسمه محمد بن أحمد كان كذلك وزيراً للسامانيين؛ كان أديباً فاضلاً شهماً جسوراً، كان من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة، ويصنفون في نصرة الآثينية. والظاهر أنه هو المراد هنا.

وفي الليلة السابعة يجري بها أبو حيان مقارنة بين كتابة الحساب وكتابة البلاغة والانشاء والتخرير وأيهما أنفع وأفضل وأعلق بالمُلك والسلطان إليه أحوج. فقد رأى ابن عبيد ان كتابة الحساب جِدّ، بينما الأخرى هزل، فيرد عليه أبو حيان ويدحض آراءه.

وفي الليلة الثامنة يتحدث أبو حيان فيها عن الفلسفة وكل من المنطق والهندسة، فقد رأى وهب بن يعيش الرقي اليهودي[1] أن الطريق في إدراك الفلسفة وذلك سلوكه مختصرة فسيحة، ليس على سالكها كدٌ ولا شقٌ في بلوغ ما يريد من الحكمة ونيل ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة؛ بينما أصحابه من المناطقة والمهندسين قد طولوا وهولوا وطرحوا الشوك في الطريق ومنعوا من الجواز عليه غشاً منهم وبخلاً ولؤم طباع وقلة نصح وإتعاباً للطالب وحسداً للراغب، وذلك لأنهم اتخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبة، ومأكلة ومشربة، فصار ذلك كسُورٍ من حديد لطلاب الحكمة والمحبين للحقيقة. ومن الموضوعات الفريدة التي جاءت في هذه الليلة المناظرة القيمة والفريدة الممتعة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي [2] وأبي سليمان

(١) ورد هذا الاسم في المقابسات؛ وكان أبو حيان يسأله في مسائل فلسفية.
(٢) وهو استاذ أبي حيان.

متى بن يونس المنطقي في المفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي. . . حيث واجه أبو سعيد متى فقال: حدثني عن المنطق ما تعني به؟ فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامُنا معك في قبول صوابه وردِّ خطئه على سننٍ مَرضيٍّ وطريقة معروفة. قال متى: أعني به (أي المنطق) أنه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسدُ المعنى من صالحه، كالميزان، فإني اعرف به الرُّجحان من النقصان، والشائل[1] من الجانح[2].

فقال أبو سعيد: اخطأتَ، لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنظم المألوف والاعراب المعروف إذا كنَّا نتكلم بالعربية؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرف بالعقل إذا كنَّا نبحث بالعقل؛ وهَبْكَ عرفتَ الرجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لك بمعرفة الموزون أيُّما هو حديد أو ذهب أو شبَهَ[3] أو رصاص؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عَدُّها؛ فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك،

---

(١) المرتفع.

(٢) المائل.

(٣) النحاس الأصفر.

وفي تحقيقه كان اجتهادُك، إلاّ نفعاً يسيراً من وجه واحد، وبقيتْ عليك وجوه، فأنت كما قال الأول:

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء. . .

ومع هذا، فحدثني عن الواو ما حكمه؟ فإني أريد أن أبيِّن أنَّ تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئاً، وأنت تجهل حرفاً واحداً في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان ومَنْ جهل حرفاً أمكن أن يجهل حروفاً، ومن جهل حروفاً جاز أن يجهل اللغة بكمالها، فإن كان لا يجهلها كلّها ولكن يجهل بعضها، فلعله يجهل ما يحتاج إليه، ولا ينفعه فيه علم ما لا يحتاج إليه. وهذه رتبة العامة أو رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير؛ فلمَ يتأبى على هذا ويتكبر، ويتوهم أنه من الخاصة وخاصة الخاصة، وأنه يعرف سرَّ الكلام وغامض الحكمة وخفيَّ القياس وصحيح الرهان؟

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد، فكيف لو نثرتُ عليك الحروف كلَّها، وطالبتُك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق، والتي لها بالتجوّز؛ سمعتكم تقولون: إن «في» لا يعرف النحويُّون مواقعها، وإنما يقولون: هي «للوعاء» كما يقولون: «إن الباء للإلصاق»؛ وإن «في» تقال على وجوه: يقال «الشيء في الإناء» «والإناء في المكان» «والسائس في السياسة والسياسة في السائس».

. . . فقال أبو سعيد: للواو وجوه ومواقع: منها معنى العطف في قولك: «أكرمتُ زيداً وعمراً» ومنها القسم في قولك: «والله لقد كان كذا وكذا» ومنها الاستئناف في قولك: «خرجتُ وزيدٌ قائمٌ» لأن الكلام بعده ابتداء وخبر، ومنها معنى رُبَّ التي هي للتقليل نحو قولهم: «وقاتِمِ الاعماق خاوي المخترق». ومنها أن تكون أصلية في الاسم، كقولك: واصِلٌ واقدٌ وافدٌ، وفي الفعل كذلك، كقولك: وجلَ يَوْجَل؛ ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عز وجل: ﴿فلما أسلما وتلَّهُ للجبين وناديناه﴾، أي ناديناه؛ ومثله قول الشاعر: «فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى» انتحى بنا؛ ومنها معنى الحال في قوله عز وجل: ﴿ويكلمُ الناسَ في المهد وكهلاً﴾ أي يكلم الناس في حال كهولته؛ ومنها أن تكون بمعنى حرف الجرِّ، كقولك: استوى الماءُ والخشبةَ أي مع الخشبة.

فقال ابن الفرات لمتَّى: يا أبا بشر، أكان هذا في منطقك؟

ثم قال أبو سعيد: دع هذا، ها هنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثرُ من علاقتها بالشكل اللفظي، ما تقول في قول القائل: «زيدٌ أفضل الإخوة»؟ قال «متى»: صحيح. قال: فما تقول إن قال «زيدٌ أفضلُ إخوته» قال «متى»

صحيح. قال: فما الفرق بينهما مع الصحة؟ فبلح[1] وجنح[2] وغصَّ بريقه.

فقال أبو سعيد: أفتيتَ على غير بصيرة ولا استبانة؛ المسألة الاولى جوابك عنها صحيح وإن كنتَ غافلاً عن وجه صحتها؛ والمسألة الثانية جوابك عنها غيرُ صحيح وإن كنت أيضاً ذاهلاً عن وجه بطلانها.

قال متَّى: بين لي ما هذا النهجين؟

قال أبو سعيد: إذا حضرتَ الحلقة استفدتَ، ليس هذا مكان التدريس بل هو مجلس إزالة التلبيس، مَع مَنْ عادته التمويه والتشبيه، والجماعة تعلم أنك أخطأتَ، فلِمَ تدعي أن النحويَّ إنما ينظر في اللفظ دون المعنى، والمنطقيَّ ينظر في المعنى لا في اللفظ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقيَّ كان يسكت ويجيل فكره في المعاني، ويرتِّب ما يريد بالوهم السانح والخاطرِ العارض والحدس الطارىء، فأما وهو يريغ أن يبرر ما صح له بالاعتبار والتصفح إلى المتعلم والمناظِر، فلا بدَّ له من اللفظ الذي يشتمل على مراده، ويكون طباقاً لغرضه، وموافقاً لقصده.

---

(١) أي أعيَّ وعجز.

(٢) أي مال.

. . . فقال أبو سعيد: إذا قلت: «زيدٌ أفضل إخوته» لم يجز، وإذا قلت: «زيد أفضل الإخوة» جاز؛ والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غيرُ زيد، وزيدٌ خارج عن جملتهم. والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال: «مَنْ إخوة زيد»؟ لم يجز أن تقول: زيد وعمرو وبكر وخالد وإنما تقول: بكر وعمرو وخالد، ولا يدخل زيدٌ في جملتهم، فإذا كان زيد خارجاً عن إخوته صار غيرهم، فلم يجز أن تقول: أفضل إخوته، كما لم يجز أن تقول: «إن حمارك أفضل البغال» لأن الحمير غير البغال، كما أن زيداً غيرُ إخوته، فإذا قلت: «زيدٌ خير الإخوة» جاز، لأنه أحد الإخوة، والاسم يقع عليه وعلى غيره، فهو بعض الإخوة، ألا ترى لو قيل: «مَنْ الإخوة»؟ عددتَه فيهم، فقلتَ: «زيد وعمرو وبكر وخالد» فيكون بمنزلة قولك: «حمارك أفضل الحمير» لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير. فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس، فتقول: «زيد أفضل رجل» و «حمارك أفضل حمار» فيدل «رجل» على الجنس كما دلَّ الرجال؛ وكما في «عشرين درهماً ومائة درهم». . .

وكان الحديث في الليلة **التاسعة والثلاثين** حول الجواب الحاضر، واللفظ النادر، والإشارة الخلوَة، والحركة الرَّضِية، والنغمة المتوسطة.

وتناول حديث **الليلة الأربعين**، الشعر والشعراء، والنقد، وعلم الكلام، واشتاتاً من الموضوعات المختلفة، مع مناقشات لطيفة وحوار عذب.

. . . لَكِن حدثنا أبو محمد العروضي عن أبي العباس المُبَرِّد قال: سألني عُبيد الله بن سليمان عن أبي تمام والبحتري: فقلتُ: أبو تمام يعلو علواً رفيعاً، ويسقط سقوطاً قبيحاً والبحتري أحسن الرجلين نمطاً، واعذبُ لفظاً. . .

. . . واجتمع رجلان: أحدهما يقول بقولِ هشام، والآخرُ يقول بقول الجواليقي؛ فقال صاحب الجواليقي لصاحب هشام: صف لي رَبَّك الذي تعبده، فوصفه بأنه لا يدَ له ولا جارحة ولا آلة ولا لسان، فقال الجواليقي: أيسرُّكَ أن يكون لكَ ولدٌ بهذا الوصف: قال: لا، قال: أما تستحي أن تصف ربك بصفةٍ لا ترضاها لولدكِ! فقال صاحب هشام: إنكَ قد سمعت ما نقول، صِف لي أنتَ رَبَّك؛ فقال: إنه جعدٌ قطط في أتم القامات وأحسن الصور والقوام. فقال صاحب هشام: أيسرُّك أن تكون لك جاريةٌ بهذه الصفة تطؤُها؟! قال: نعم، قال: أفما تستحي من عبادة من تحب مباضعة مِثلِه!! وذلك لأن من أحب مباضعته فقد أوقع الشهوة عليه.

فقال: هذا من شؤم الكلام ونكد الجدل، فلو كان

هناك دين لكان لا يدور هذا في وهم ولا ينطق به لسان.

وحكى أيضاً قال: آبتُلِيَ غلامٌ أعجمي بوجع شديد، فجعل يتأوَّه ويتلوَّى ويصيح. فقال له أبوه: يا بُني آصبر واحمد الله تعالى. فقال: ولماذا أحمدُه! قال لأنه ابتلاكَ بهذا؛ فاشتد وجعُ الغُلامِ ورَفَعَ صوته بالتأوه أشدَّ مما كان، فقال له أبوه: ولِمَ اشتد جزَعك! قال: كنتُ أَظُنُّ أن غير الله ابتلاني بهذا فكنت أرجوه أن يُعافيني من هذا البلاءِ ويصرفه عني، فأما إذا كان هو الذي ابتلاني به فمن أرجو أن يعافيني! فالآن اشتدَّ جزعي، وعظمت مُصِيبتي. قال: ولو عَلِمَ أن الذي ابتلاه هو الذي استصلحه بالبلاء ليكونَ إذا وهب له العافيةَ شاكراً له عليها بِحسٍ صحيحٍ وعلمٍ تامٍ لكان لا يرى ما قاله وتوهَّمَه لازماً.

وحكى أيضاً أن رجلاً من العجم حَجَّ وتعلق بأستار الكعبة فطفق يدعو ويقول: يا من خلق السباع الضارية والهوام العادية، وسلطها على الناس، وضربهم بالزَّمانةِ والعمى والفقر والحاجة؛ فوثب الناسُ عليه وسبوه وزجروه، وقالوا: آدعُ الله بأسمائه الحُسنى. فأظهر لهم النَّدامة، والتَّقارف فخلوا عنه بعدما أرادوا الوقيعة به، فرجع وتعلَّق بأستار الكعبة، وجعَلَ يُنادي: يا مَنْ لم يخلق السباع الضارية، ولا الهَوَامَ، ولا سلطها على الناس، ولم يضرب

الناس بالأوجاع والأسقام. فوثبوا عليه أيضاً وقالوا له: لا تقل هذا فإن الله خالقُ كلِّ شيءٍ؛ فقال: ما أدري كيفَ أعمل؟ إن قلتُ: إن الله خالقُ هذه الأشياء وثبتم عليَّ؛ وإن قلتُ: إن الله لم يخلُقها وثبتم عليَّ. فقالوا: هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك ولا تَدْعُ الله به.

فموضوعات الكتاب كما ترى متنوعة تنوعاً ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث، حتى اننا لنجد في الكتاب مسائل من كل وفن، من أدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وادبائه وعلمائه، وتصوير للعادات، وأحاديث المجالس، وغير ذلك من الموضوعات.

نماذج من المقابسات

٦ ـ المقابسة الخمسون:

سئل أبو سليمان عن الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب، وعن التنجيم وما يقدر به على أحكام المستقبل، وعن النبوة التي هي في محلها الأعلى ومكانها الأشرف. فتصرف في الجواب أحسن تصرف، على سعة من اللفظ والمعنى. ولكن تفلت كثيرٌ منه بسوء اللَّقن، وقلة العناية، ومقدار الحاصل منه قد أثبته في هذا الموضع، خوفاً من أن يذهب نسياناً. فإن وافقتني فيه ففائدة حاصلة، وإن قصرت بي فحالة محتملة، وما علي إلا الجهد، وبذل المطاق. وإذا عذرني المتكرم المنصف، لم أحفل بالمتعنت المسرف، والله يعين أهل الحق بلطفه.

قال: الكهانة قوة إلهية، توجد في شخص بعد شخص، بسهام سماوية، وأسباب فلكية، وأقسام علوية. فإذا توسطت صارت في منصف البشرية والربوبية. فحينئذ يكون ما يبدو بها مشيراً إلى غيب أمور الدنيا، وإلى غيب

أمور الآخرة، على حد يكاد يكون على سواء. والغلبة مع ذلك لأمور الدنيا، لإن الانسان بالطبيعة أكثر منه بغيرها، في الأعم الأغلب، والشائع الأشمل. فإن تحدرت هذه القوة قليلاً، كانت الإشارة إلى أمور عالية شريفة. ومجال النبوة، بين أثناء هذه القوة، بالترقي والتحدر. وكلما كان التباس النفس بالمزاج الموافق أقوى، كان النور المقتبس من هذه القوة أسطع وأعلى.

فعلى هذا قوة المنجم متتبعة لآثار الكواكب تتبعاً ضعيفاً، لأن الآلة لا تساعده، والصبر لا يوافيه. وذلك أنه يستقري هذه الأمور المنتشرة من تلقاء نفسه، ومن ناحية اختياره وقصده، ويستجر القوى من علٍ إلى نظره وبحثه. وليست قوة الكاهن كذلك، أعني ليست بتتبع، بل هي كالإلقاء، والوحي، والسائح، والطارىء. فإن اجتمعت القوتان، أعني قوة التتبع بالصناعة وقوة الاقتباس بالكهانة، ظهر كل أمر عجيب، وسمع كل قول غريب.

ثم قال: وعلى ما تبين، فإن الكهانة أقوى إذا كان صاحبها لا يشوبها بشيء من الحس، وألقاها على صفائها ونقائها، لأن قوتها تنسكب من المحل الأعلى، فنسبتها بالعلة الأولى تامة، قوية، صحيحة، واضحة.

قلت له: فهل يخطىء الكاهن كما يخطىء المنجم؟

فقال: نعم يخطىء، وليس الخطأ منه محالاً، لأن قوته لا تبلغ الغاية في الخلاص أبداً، بسبب تركيبه الذي هو سبب استحالته، واستحالة ما يجاوره بنفسه.

قال له أبو العباس البخاري: فهل يخطىء صاحب النبوة؟ قال: نعم. ولكن لا يقدح خطأه في الحال التي رشح لها، ووشح بها، وجعل سفيراً إلى الخلق من أجلها. بل يحرس حراسة إن لم تنف عنه كل الظنة لم تعلقه كل قرفة. قلت له في هذا الموضع: فهلا يحلّى شخص بقوة النبوة من غير أن يستسفر بها، ويعرّض للخلق من أجلها؟ قال: نعم. لا مانع من ذلك. ولولا هذه القوة، التي تشيع على حدودها ومراتبها، في أشخاص العلماء والبررة، ما كان يصح حدس، ولا تصدق نفس، ولا يتحقق ظن، ولا يتوضح وهم. بل هذا أمر في غاية الغلبة والظهور حتى في كثير من أنفس العوام.

ثم حكى في هذا الفصل: ان رجلاً بزنكان[1] كان يقال له خدا داد[2]، وكان مكارياً صاحب حمير ويخدمه عليها غلمان، ويثق به في عمله تجار كبار. وانه في بعض

---

(١) زنكان: اسم بلدة، ولعلها زكان، وهي بلدة بسمرقند.

(٢) خدا داد: اسم رجل. وأصلها من لفظين: خدا = الله. دا = عطية، أي عطية الله.

طرقه وأسفاره، سيّب الحمير، وطرح الأثقال، وقال: ليأخذ من شاء ما شاء. وعاد إلى بيته، على وَلَهٍ شديد، لا ينطق بحرف، ولا يتعلّق بأمر، ولا يستوضح من حاله شيء. فساء أهله ذلك ومعارفه، وأطالوا عليه. فلما كان في بعض الأيام، وقد احتوشوه بكل قول، ورموه عن كل قوس، توجّه نحو الحائط، وقال: يا قوم ما لكم ومالي معكم؟ وما هذا التعجب والإكثار؟ أما رأيتم من كان قاعداً على مزبلة، فنبعت من بين يديه عين صافية بماء كالزلال عذب، فشرب منها، وتبحبح بها، وعاشت روحه بمجاورتها، وكانت سبب ريّه الذي لا ظمأ بعده، وطهره الذي لا دنس معه. هذا تمام الحكاية.

قال قائل لأبي سليمان، عند هذا الفصل: حدثنا عن نكتة في هذا الموضوع، فإنه قد جرى ما لا مزيد عليه، ولا تقصير معه، ولا بد من انتهاز كل فرصة يحتمله هذا الباب. ما بال الكلام الذي يأتي به صاحب هذه القوة، يظهر محتملاً للطعن، وهدفاً للتهمة، وطريقاً إلى القالة الشنعة؟ فقال: هذا بالواجب، لأن صاحب هذه القوة يرسل القول إرسالاً، بحدة قوته مرة، وبخمودها مرة، وبتوسطها أخرى. ولها في نفسها شأن، وبالإضافة إلى مزاج صاحبها شأن، بل بالإضافة إلى كل حال عارضة، وإلى كل سبب واقع، والنسبة عاملة عملها، والبشرية جارية على خاصتها. فحينئذ خرج ذلك

الكلام بين مراتب ثلاث: في الغاية التي لا غاية وراءها، وفي التوسط الذي يعتدل فيه، وفي الطرف الأدنى، وفيما بين ذلك كله بالأرجح والأنقص، والأقل والأكثر. والتأويل يركب متونها، والظن يسري في أطرافها، والقالة تجد سبيلاً إلى التشنيع عليها. فلهذا وأشباهه يكون ذلك. على أن هذا إذا تؤمل بالنصفة، مقيساً إلى الطبائع المختلفة، والعادات المتباينة، والأغراض المتشعبة، كان في نصاب الحكمة ثابتاً، وعلى مدارجها جارياً، وإلى أصولها وفروعها نازعاً. ولولا ضيق أعطان[1] الناظرين في هذه العوارض عن التثبت والإنصاف، لكان يتجلى هذا كل التجلي، ويزول عنه الخلاف كل الزوال. قيل لأبي سليمان: أليس لو صفت الحال ها هنا من عارضٍ خطأ، وسانح تأول، ومضروب مثل، كانت أبلغ في المعنى، وأنفى للتهمة من العدى؟؟ قال: بلى. ولكن ليس كل ما شهد العقل بصفائه وطهارته وبعده عن الدنس والدرن في أفقه وعالمه، يجوز أن يوجد ذلك على كماله في عالم الحس المشوب الكدر، الذي لا ثبات له ولا مستقر. وكيف يجوز أن يوجد كل ما هو بالقوة، في كل شيء بالفعل، في حال واحدة؟ كأنك تريد أن تعري البشر من البشرية. وهذا ما لا يكون، ولا يجوز أن يكون. بل

(١) اعطان: جمع عطن وهو مبرك البعير، لكنى به عن ضيق النفس، والنظر.

تتفاوت مراتب أصحاب هذه القوة، بحسب أنصبائهم، حين انقسمت عليهم، فيتحلوا بها على مقادير مزاجهم وطباعهم ونهوضهم واحتمالهم، وذلك التفاوت هو الذي يعلي حال هذا، ويحط شأن هذا عن هذا، إلى آخر أفق الإنسانية المحتملة لغاية هذه القوة الشريفة. ثم ان الأخلاق والألفاظ تابعة لها، على ما تبدو به من الضعف والقـوة، والبيان واللغز، والتوسط.

ثم قال: والبلاء الأعظم في أمر الأنبياء عليهم السلام، أنَّ من الناس من يظن أنه كذبه أصحاب حيل، ومنهم من يظن أنه لا يجوز أن يقع منهم شيء من القول والفعل يتعلق بما يوجب التهمة ويجلب الشك. وكان وراء هذين الرأيين من هذين الصنفين القول الحق، الذي لا يكون بعده تلبيس وتأويل. وذلك أنه ينبغي أن يعلم أن الشخص المخصوص بهذه القوة عليٌّ الدرجة بها، رفيع المكان معها، ما دام يخبر بها وعنها، ولا يمزجها بغيرها، فإنه حينئذ ينبىء عن أعيان الأمور، وقلوب الأحوال، وعواقب الأيام. فأما إذا عاد إلينا مفارقاً الاقتباس، داخلاً في عـادة ذوي الإحساس، فهـو كواحد من ضربائه ولداته، إن أصاب فبيقظته، وإن أخطأ فبفطرته، لأنه في مسلك غيره من البشر، ومسلول من الطين الأول، ذو طبائع أربع متعاندة، وعناصر متشابكة، لا فرق

بينه وبين غيره البتة، ما دام الحال على ما وصفنا وحددنا. فأما إذا انبعثت القوة بسلطانها، وانبجست النفس ببرهانها، فإن هذا الشخص يأتي بك ما يهدي العقول، ويصلح الأحوال، ويقنع النفوس، وينظم المصالح، ويقوم الأخلاق، ويهذب الطبائع، ويكون نور العالمين، ورحمة للخلق أجمعين.

ثم خرج من سياحه هذا، إلى الفرق بين الشريعة والفلسفة. وحفز الجماعة المساء، ولم يستوف ذلك على حقه. ولعلي أعود على هذه المقابسة فآتي بما يكون محيطاً بأكثر قوله في مواضع أخر من غيره، فقد بعلت[1] جداً بالكلام الذي تعقّد أوله بآخره، وساء تأليفه من جميع حواشيه، وبان التقصير في نشره وروايته. وعلى أنك، أدام الله حياطتك، لو علمت على أي حال نقل هذا القدر، وفي أي وقت، وبأي قلب، ومع أي شغل، لاستكثرت قليله، وحمدت الموفق له. وما أكثر ما أخذت نفسي بتحول ذلك كله إلى نمط آخر، بطراز آنق من هذا الطراز، واحتراز أشد من هذا الاحتراز، إذا أذن الله بزوال ما هم النفس والبال، وانحسار ما وهم الصغار والكبار، بمنه السابغ، وفضله المشهور.

---

(١) بعلت: حِرْتُ.

المصادر والمراجع

ابن الأثير: الكامل

أحمد أمين: ظهر الإسلام، مقدمة الامتاع والمؤانسة.

آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، المقابسات، رسالة في العلوم، الصداقة والصديق، مثالب الوزيرين، الإشارات الإلهية.

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي.

حسين مروة: تراثنا كيف نعرفه، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية طـ١ ١٩٨٥.

حسن نور الدين: الفردية أو الأنا في شخصية أبي حيان التوحيدي، مجلة الفكر العربي بيروت ـ عدد ٥٤.

الطبري: تاريخ الأمم والملوك.

عبد الوهاب عزام: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام.

عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي.

زكي مبارك: النثر الفني، بيروت دار الجيل.

محمد علي طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية.

مصطفى الشكعة: مذكرات في المكتبة العربية.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
١ ـ عصرة، نبذة تاريخه	٥
أ ـ الناحية السياسية	٥
ب ـ الحياة الإجتماعية	٩
ج ـ الناحية الثقافية	١٢
٢ ـ أبو حيان التوحيدي	١٧
أ ـ حياته وصفاته	١٧
ب ـ أصله ونشأته	٢١
ج ـ مهنته وثقافته ومؤلفاته	٢٤
د ـ علاقاته واتصالاته	٢٩
هـ ـ شخصيته	٣١
و ـ الشكوى في أدبه	٣٥
ز ـ الإزدواجية في شخصيته	٤٤
ح ـ فكره وعقيدته	٤٨
ق ـ اسلوبه	٥٠

٣ ـ كتاب الإمتاع والمؤانسة ٥٢
أ ـ محتواه ومنهجه ٥٢
ب ـ نُسخ الكتاب ٦٥
ج ـ كيف بدا التوحيدي من خلال كتابه ٦٩
٤ ـ التعريف ببعض كتبه الأخرى ٨١
أ ـ المقابسان ٨١
ب ـ موضوعات المقابسات ٨٥
ج ـ كتاب الهوامل والشوامل ٩٣
د ـ كتاب الصداقة والصديق ٩٤
هـ ـ كتاب مثالب الوزيرين ٩٥
و ـ كتاب البصائر والذخائر ٩٥
ز ـ كتاب المحاضرات ٩٦
ج ـ كتاب تقريظ الجاحظ ٩٦
ك ـ رسالة العلوم ٩٨
ل ـ الزّلفة ٩٨
م ـ الإشارات الإلهية ٩٨
٥ ـ بعض النماذج من كتاب الامتاع والمؤانسة ١٠٠
٦ ـ نماذج من المقابسات ١١٩
المصادر والمراجعت. ١٢٦
المصادر والمراجع ١٢٦